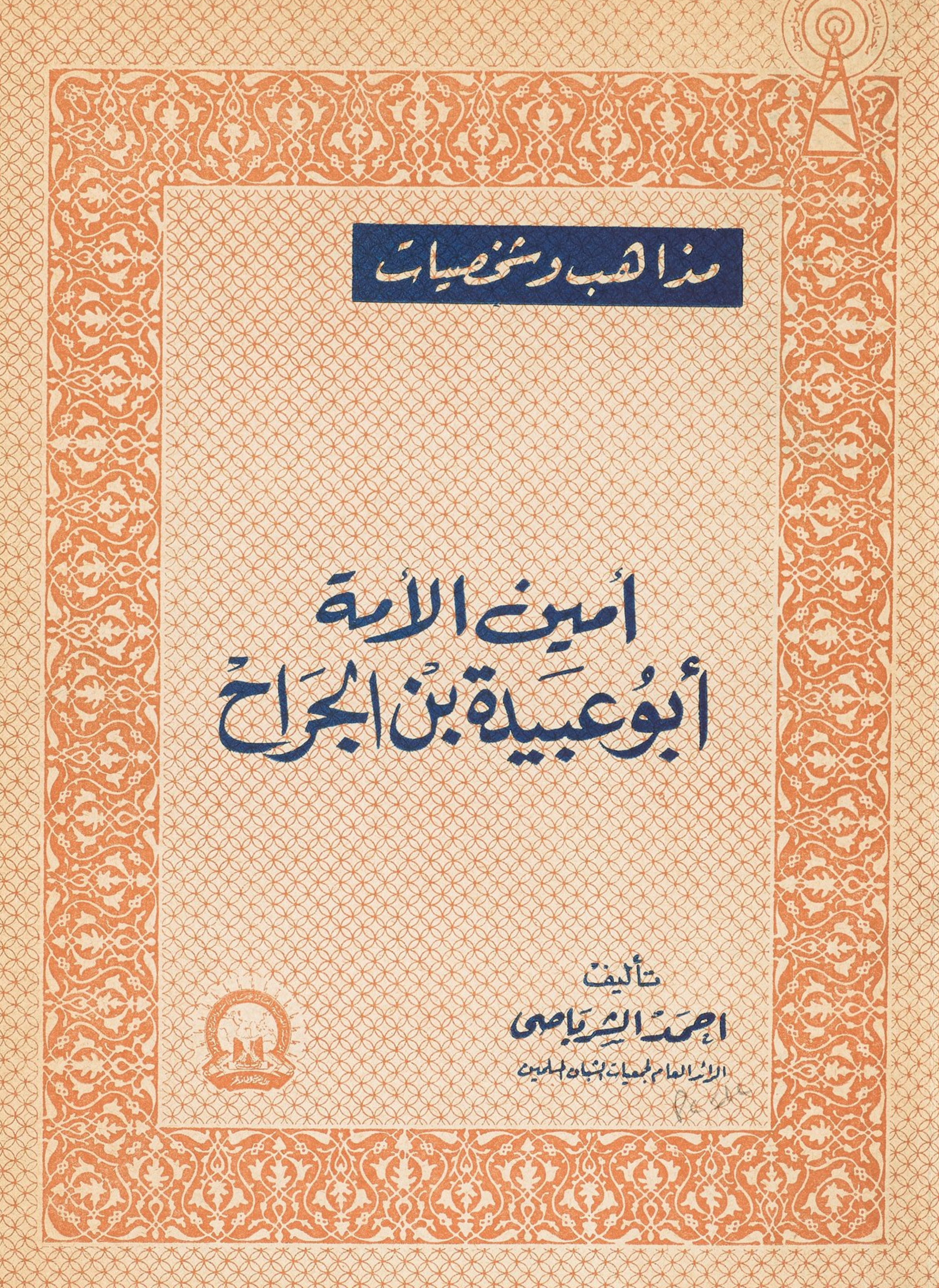

مذاهب وشخصيات
أمين الأمة
أبو عبيدة بن الجراح
تأليف
احمد الشرباصى
الأمين العام لجمعيات الشبان المسلمين

al Sharabāṣī, Aḥmad

مذاهب وشخصيات

Amīn al-ummah

أمين الأمة
أبو عبيدة بن الجراح

تأليف
احمد الشرباصي
الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم
من القرآن الكريم

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

(سورة الفتح)

شهادة من الرسول

روت كتبُ السنة النبوية المطهَّرة عن حُذيفة بن اليمان أن جماعةً من أشراف نَجران – إحدى بلاد اليمن – قَدِموا سنة تسع للهجرة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له :

يا رسولَ الله ، ابعث إلينا رجلا أمينا .

فقال : « لأبعثن إليكم رجلًا أمينا حقَّ أمين حقَّ أمين » ! .

فتطلع الناس لهذا الشرف ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة ابن الجراح ! . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد اللهَ تبارك وتعالى على نعمِه وآلائه ، ونصلى ونسلم على رسله وأنبيائه ، وعلى خاتمهم محمد وآله وصحبه وأتباعه ، ونسأله التوفيقَ فى القول والعمل ، فهو الذى بقدرته وجلاله تتم الصالحات .

هذه دراسة لحياة البطل الإسلامى الكبير ، والصحابى الجليل : أبى عبيدة ، حاولت فيها أن أرسم بالقلم صورةً لشخصه وأخلاقه وجهوده ، لتكون غذاءً روحياً للقارىء المؤمن . ومثلا عالياً للدارس المنصف .

ولعل فيها مع ذلك قدوة للمجاهدين ، وأسوةً للموقنين ، وعظة للمعتبرين ، وصلة بين السابقين واللاحقين :

« إن أريد إلا الإصلاحَ ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

أحمد الشرباصى

الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين

تمهيد

جاء رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام إلى العالم الحائر المضطرب ، مجىءَ المنقذِ من الحيرة ، الهادى من الضلال ، فى يمينه القرآنُ المجيد الذى أخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فترك محمد بذلك أخلدَ الآثار فى الإنسانية ، بما لم يتطاول إليه ، أو بما لم يقدر عليه زعيمٌ أو مصلح ، وشتانَ بين معتز برأيه وعبقريته ومجهوده ، وبين رسول صَنَعه الله على عينه ، وأيدته قوةُ السماء ، وعصمه الله القوى القدير .

ولما استجاب محمد لداعى ربه ، ولحق بالرفيق الأعلى ، لم تنقطع الآثارُ الروحية والدينية التى أثرها فى الإنسانية بدين ربّه الكريم ، وبهديه العظيم ، وسنته المطهَّرة ، بل ازدادت سيرُته وتاريخه بسبب ذلك التماعاً وارتفاعا ، فعكفت العقولُ والأقلام والألسنة ، تكتب عن محمد ، وعن دين محمد ، وعن سنة محمد ، وظهرت فى ذلك آلافُ الأسفار والكتب ، ولا تزال تظهر لها أمثال وأمثال .

ولقد كان محمد صلواتُ الله وسلامه عليه رسولا نبيلا ، ومصلحاً جليلا ، لم تظهر عليه ، ولا فى تصرف من تصرفاته ، ولا فى حركة من حركاته ، سمةٌ من سِمَات الأثرة . أو علامة من علامات حب الذات ، بل لقد تعب حيث استراح غيره ، وجاع حين شبع سواه ، وكان يرى نفسه مسئولا عن تخريج أَتْبَاعِه أبطالا فى كل ميدان من ميادين الحق والشرف والمجد ، فلم يكن كالكثرة الغالبة من زعماءِ الدنيا وعشاقِ المناصب ، الذين يحاولون بكل جهد ووسيلة أن يمتلكوا أسبابَ السيطرة والسلطان ، فإذا بلغوا ما أرادوا ، بطريق مشروع أو غير مشروع ،

جمعوا أزمَّةَ المجد والتصرف والشهرة فى أيديهمْ ، فكلٌّ منهم يحرص بما أوتى من حيلة وبراعة أن يكون هو وحده النجمَ الساطع وغيره نَكِرات ، وأن يكون هو العملاق وغيره الأقزام ، وأن يكون هو الممدوح المُثْنى عليه بكلّ لسان ، وأن يكتفوا هم بالسماع والاستحسان .

نعم لم يكن رحمةُ الإنسانية وهادى البشرية محمدٌ كذلك ، بل كان لا يميز نفسَه بشىء ، ولا يستأثر دون صحابته بشىء ، وكان فيهم كأحدهم ، وكان حريصاً على تخريجهم أبطالا كبارا ، ليكونوا نعمَ الخلفاءِ من بعده ، فيحملوا شَرِيعَتَه وهديَه إلى الناس ، حتى يظل الوعدُ الإلهى بحفظ الذكر ، وبقاءِ الدعوة ، قائماً متحققاً صادقا .

ولذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يهيء لأغلب صحابته ، بل لجميع صحابته — حسب طاقته وإمكانه — الظروفَ والمناسبات التى يظهرون فيها ، ويُبْدون خلالَها ما كمن فى أشخاصهم من هبات وعبقريات ، وإذا ما تجلى فى أحدهم شىءٌ من ذلك فرح به وهش له ، وأثنى عليه ، ورجا منه المزيد ، وما كان يمنعه عن ذلك الإظهارِ ، وذلك التكريم ، صغرُ السن ، أو قلةُ المكانة ، أو تواضع النسب ، أو ضآلة الحسب ، وصدق القرآن المجيد حيث يقول فيه :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »

ومن هنا تخرج فى مدرسة محمد العظمى كثير من القواد والعظماء ، والعلماء والفقهاء ، والزهاد والأتقياء ، والمصلحين والحكماء ، حتى صدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يوم قال : « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتمُ اهتديتم » .

وكأنَّ رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام كان يريد أن يجعل مبادئَ دينه ، وقواعد هديه ، وتعاليم سنته ، حقائقَ ماثلةً فى أناس وأشخاص ، فيكون ذلك التطبيق مع تلك التربية العملية أفضلَ بكثير من تسطير السطور ، وتقييد النصوص ، مهما كانت هذه النصوصُ عظيمة سامية ، منطوية على أجمل مقاصدِ الخير والحق والفضيلة .

ولقد قيل لداعية إسلامى كبير ، كان يكثر من دروس التهذيب وخطب التأديب ، فى بلاغة وتأثير ، دون أن يكتب مؤلَّفا : لماذا نراك تقول خُطَباً ، ولا نراك تؤلِّف كتبا ؟ ... فقال ذلك الداعية الحكيم : إننى أريد أن أكوِّن رجالا ، ولا أريد أن أسطِّر أقوالا .

وكأنى بهذا الداعية الألمعى قد استهدى فى ذلك بهدى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كانت الخصيصة الواضحة فى المنهاج الموضوع لمدرسة النبوة هى العناية بتطبيق النصوص والمبادىء ، أكثرَ من تكرير هذه النصوص وتلك المبادىء ، وإنه لسهل عليك ان تحفظ الكثير من الحكم وبليغ الأقوال ، ولكن الذى يحتاج إلى مجهود هو أن تحوِّل تلك الأقوالَ إلى أعمال .

وإنك لتستعرض قوائمَ الذين تربَّوا فى مدرسة محمد وتخرَّجوا فيها ، فإذا جموع وجموع ، كل فرد منها قد نبغ وسبق ، وترك فى التاريخ صفحات عاطرةً ، تتردد فيها الأبصار فتستضىء بها البصائر ، وعلى الرغم من كل هذا النبوغ وذلك السبق ، فقد ظلت شخصية محمد صلوات الله وسلامه عليه بسيرته وسنته بدرا ساطعا وسطَ هذه الهالة من الكواكب والنجوم .

وزاد ذلك البدرَ سطوعا ، أن الكاتبين والخاطبين داروا حولَ

الشخصية المحمدية ، فأبدءوا فى القول عنها وأعادوا[1] ، واتخذوها مادةً باقية دائمة للكتابة والخطابة ، وهذا جميل ومقبول ، وكذلك من الجميل والمقبول أن ينعطفوا أحياناً عن الحديث فى الرسول إلى الحديث فى خلفائه الراشدين الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين ، لأنهم هم الذين ورثوا تبعاتِ الرسالة ، وحفظوا الأمانةَ من بعده ، وكانوا متبعين لا مبتدعين .

ولكنه من الخير بجوار هذا الحديث الفياض المعاد عن الرسول وخلفائه أن نتحدث عن أعلام الصحابة الآخرين ، ففيهم من كان يصلح للخلافة لو جاءها أو جاءته ، وفيهم آيات من آيات الله فى عباده ، تتجلى منها العظمة والبطولةُ ومكارمُ الأخلاق .

وإذا لم نتحدث عن هؤلاء فسينساهم الأخلاف ، وسنجحد بتطاول الأمَد ما كان لهم من فضل وأثر ، وسنُوهِم غيرَ الواقفين على التاريخ الإسلامى أن المدرسة المحمدية لم يكن فيها إلا زعيمها وأربعة طلاب نجباء ، هم الأربعة الخلفاء ، وأن هذه المدرسة قد عَقُمت بعد هؤلاء الأربعة فلم تلد بعدهم عظيما ، ولم تخرِّج عبقريا ، مع أنها خرَّجت من القادة الأئمة عشراتٍ وعشرات وعشرات .

ومن هؤلاء الأئمة القادة ، الذين نود أن نصحبهم فى حياتهم ، وندرسهم فى مواقفهم اللامعة ، ونقدِّم من أقوالهم وأعمالهم نماذجَ يُستَهْدَى بها ويستضاء ، البطلُ الإسلامى الكبير أبو عبيدة عامر بن الجراح رضوان الله تعالى عليه .

---

(1) ابدا الشيء مثل بدأ : فعله ابتداء . فى أساس البلاغة للزمخشرى « وأبدأ فى الامر وأعاد ، والله المبدىء المعيد ، وفلان ما يبدىء وما يعيد : اذا لم يكن له حيلة ، قال عبيد :

أقفر من أهله عبيـــــد فاليوم لا يبدى ولا يعيد

وفيه أيضا : « ورأيت فلانا ما يبدىء وما يعيد ، وما يتكلم ببادئة ولا عائدة » .

من هو أبو عبيدة

هو المسلم الجليل ، والمؤمن المِقدام ، والصحابى الكبير ، والعربى القُحُّ ، عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر ... إلخ .

ووالدته هى أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العُزَّى بن عامر ابن عميرة ؛ وقد كان من نعمة الله على أمه هذه أنها عاشت حتى أدركت الإسلام ، ووفَّقها ربُّها للدخول فيه ، وهى أيضاً تلتقى من جهة أمها مع ابنها عامر فى النسب عند الحارث بن فهر .

وقال محمد بن سعد — فيما يرويه ابن عساكر — : « فى الطبقة الأولى من بنى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة — وهم آخر بطون قريش — أبو عبيدة بن الجراح » .

وكُنْيَتُه هى « أبو عبيدة » ، وقد اشتهرت هذه الكنيةُ ، وغلبت اسمَه الأصلى وهو « عامر » ، حتى أصبح الكثيرون لا يعرفونه ، أولا يذكرونه باسمه ، بل بكنيته ، كما أنه أصبح لا يُنسب إلى أبيه بأن يقال : أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح .. إلخ ، بل يُنسب إلى جَدِّه والد أبيه ، فيقال : أبو عبيدة بن الجراح ؛ ومثلُ هذا يحدث كثيراً فى نسب الكبراء والعظماء . .

ولقبه هو : « أمين هذه الأمة » . . . وقد أطلق عليه هذا اللقبَ نبيُّنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فكساه بذلك حلةً من الثناء لاتبلى مفاخرُها ، وطوَّق جيدَه بوسام دونَه الأوسمة ، وكيف لا وقد

نَعـتَه بأنه أمينُ الأمة الناجية الوسطى ، الشاهدة على الناس يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، والأمانة هنا جماعُ محامد وملتقى مفاخر ، والواصف هو الصادق المصدوق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! ...

ولعله يمر علينا حديثٌ آخر عن هذا اللقب فيما نستقبله من هذه الدراسة ...

أبو عبيدة فى الجاهلية

لم تنبسط صفحاتُ التاريخ فى العهد الجاهلى للحديث عن أبى عبيدة ، فقد كان العهد عهدَ جاهلية وأمية وتشتت وضياع ، كما أن أبا عبيدة لم يكتب اسمَـه فى سجل الخالدين إلا بنعمة الإسلام ، والجهادِ الصادق المظفّر لإعلاء كلمة ربِّ العالمين... ولن يضير أبا عبيدة شىءٌ من هذا ، فأغلبُ الذين التمعت أسماؤهم فى صدر الإسلام قد ضنَّ عليهم التاريخُ فى العهد الجاهلى ببسط القول والحديث .

وبرغم هذا فالتاريخ يحدِّثنا بأن أبا عبيدة كان جليلا فى أثناء الجاهلية فى ناديه ، مهيباً فى قومه ، مستشاراً لديهم ، مشهوراً بحسن الرأى والدهاء ، حتى قيل فى ذلك : « داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح » ...

ولعله لا يقصد من الدهاء هنا ما تعارفَ الناس عليه أخيراً فى معنى الدهاء ، من أنه الاحتيال وبراعة المداورة والمحاورة ، بل يُقصد به التفكيرُ الصائب ، والنظر البعيد ، والرأى السديد .

ومن هنا اجتمع أبو بكر مع أبى عبيدة فى قولتهم السائرة السابقة ، مع اختلاف طبيعة أبى بكر الهادئة الذاكرة عن طبيعة أبى عبيدة المجاهدةِ الثائرة . . وهذه القولة تدل على مكانة ملحوظة لأبى عبيدة رضى الله عنه إذ يكفى أن تقرنه مع أبى بكر فى سَبَبٍ ، وأبو بكر رضوان الله عليه هو من هو فى جاهليته وإسلامه . . فكيف والقولة تجمع بينهما فى صفة تدل على تهيؤ صاحبها من أول الأمر ليكون شيئاً مذكوراً فى هذه الحياة ؟ ! .

وسمو مكانة أبى عبيدة فى الجاهلية مع علو رتبته فى الإسلام ، من

اسطع الدلائل على صدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه يوم قال : « الناس معادن ، خيارُهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقِهوا » .

وإذا انطوى المرء على مواهبَ وقوى ملحوظة فى الجسم أو العقل أو الروح ، فإنه يكون صاحب تأثير واسع فيمن حوله بوساطة تلك المواهب ، وإذا كان تأثيره بها سيئاً وخطيراً ؛ من سوء التوجيه ، أو قلة التعليم ، أو ضلال البيئة ، فما يحتاج هذا الشخص إلا إلى تحويلِ اتجاهه برفق وحكمة من شطر الضلال إلى شطر الاستقامة ، فإذا هو قوةٌ خَيِّرةٌ ظاهرة ، كما كان قوةً شرِّيرة ظاهرة ، وفى ذلك ما فيه من الإشارة إلى وجوب البراعة فى حسن توجيه القوى إلى الخير ، وجميل التأتى لهداية الفحول من الرجال إلى شرعة الحق والبر ، حتى يتسعَ الانتفاعُ بهم فى ميدان الرحمن .

* * *

ولم يشأ التاريخ المأثور عن الجاهلية أن يحدِّثنا عن العام الذى وُلد فيه أبو عبيدة ... وأين كان القوم الغارقون فى شن الغارات وشفاءِ الحزازات من الاهتمام بتسجيل سنوات الميلاد ؟! .

إلا أننا نستطيع أن نستنتج على وجه التقريب السنةَ التى وُلد فيها أبو عبيدة ، فقد ذكرت كتبُ السيرة أن أبا عبيدة قد شهد غزوة بدر وهو ابن إحدى وأربعين سنة ، وغزوةَ بدر كانت فى السنة الثانية بعد الهجرة ، فيكون أبو عبيدة قد وُلد فى العام التاسع والثلاثين قبل هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه من مكة إلى المدينة ، وإذا تذكرنا أن الرسول قضى قبل الهجرة ثلاثة عشر عاماً بعد بعثته فى مكة استطعنا أن نقول بتعبير آخر : إن أبا عبيدة قد وُلد فى العام السادس والعشرين قبل مبعث النبى عليه الصلاة والسلام ...

سبق أبى عبيدة إلى الإسلام

« والسابقون السابقون ، أولئك المقرَّبون » . . . لقد ظهر نورُ الإسلام ليهدىَ الحيارى إلى سواء السبيل ، فغشَّى الكثيرون أبصارَهم بحُجُب العناد والمكابرة والكفران ، وتردد البعض فى مفترق الطرق فأخذتهم غواشى الريب والشك ، وسارعت « ثُـلَّـةٌ من الأوابين » إلى ضوء الله المبين ، فأذعنوا للدعوة ، واستجابوا لها ، واستضاءوا بها ، وكان لهؤلاء شأنٌ أى شأن عند الله وعند رسوله ، وقد لاَقوْا من البُشْرَيات والتكريم من الرسول ما هو كِفاءُ إقدامهم وإسراعهم إلى الدخول فى الدين الجديد ، وهو لا يزال يتلمس المنافذ إلى القلوب فى خِفية وحذر . . .

من هؤلاء السابقين أبو بكر الصديق رضى الله عنه الذى لم يكتف بإسلامه وصدق معاونته للرسول ، بل كان يدعو إلى الإسلام سرًّا فى أناة وحكمة ، وكان يُقبل على أناس يتخيرهم بأعينهم ، ويناجيهم حول الإسلام حتى يقنعهم بأحقيته وجماله ، فيدخلون فيه طائعين مختارين .

ورُوِى أن أبا بكر توسم فى أبى عبيدة بن الجراح ذكاءَ قلبٍ وصفاءَ فطرة ، فحدَّثه عن الإسلام ، فسرعانَ ما شرح الله صدرَه له ، وأزال عن بصيرته حجابَ الشك والريبة ، واستجاب لتوجيهِ الصدِّيق ، وانطلق مع نفرٍ من كرام العرب فيهم أبو سَلَمة بن عبد الأسد ، وعبيدةُ ابن الحارث بن المطلب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعاد عليهم شرحَ الإسلام ، وحببهم فيه ، فأسلم هؤلاء جميعاً فى ساعة واحدة ، وبذلك دخلت كتيبةٌ جديدة فى دين الله ، فاعتز بهم واعتزوا به ، وكان ذلك فى أول الدعوة ، قبل أن يدخل

النبي صلوات الله وسلامه عليه دارَ الأرقم بن أبي الأرقم ، وقبل أن يتخذها مكاناً لدعوته وتبليغه .

****

ونحن نلاحظ أن أبا عبيدة قد دخل الإسلامَ وعمرُه يزيد على الخامسة والعشرين ، ومعنى هذا أنه دخله وهو فى وسط عمره وزهوة شبابه ، فليس حدثاً صغيرَ السن ، حتى يقال إنه كان مسيَّرا مأخوذا أو مخدوعا مبهورا بإنسان أو بيان ، ولم يكن طاعنا فى السن ، حتى يقال إنه قد وهنت عزيمته ، وقارب الوقتَ الذى يفىء فيه المرءُ بعدَ ضلال ، ويهتدى بعد جموح ، بل أسلم وهو شاب مكتمل الجسم والعزم والتفكير ، لو وجد قوةً لدافعَها وقاومها ، ولو وجد إغراءً غيرَ شريف أو غير نظيف ، لنبت أمامه ، واستعصى عليه ، ولتولدت فيه روحُ العناد والثورة ، ضدَّ هذه الطريقة الملتوية التى تريد أن تلفته عن رجوليته وكرامته .

ولو وجد أبو عبيدة حين دُعى إلى الإسلام باطلا فى ذلك الدين الحنيف ، أو منكرا فى تلك الدعوة السمحة لما ارتضى ذلك لنفسه ، ولا قَبِلَ الباطلَ لعقله ، بل لجاهده جهادَ الأحرار .

ولكن أبا عبيدة استعرض الإسلام وفيه مقوِّماتُ التفكير ، والتقدير ، والتمييز ، والاختيار ، فما وجد هناك خديعةً ولا تغريرا ، وما وجد باطلا أو منكرا ، بل وجد نوراً وضياء ، ووجد حقاً وبرهانا ، ووجد قانونا دقيقا تتمثل فيه العدالةُ بأكمل صورها ومظاهرها : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

فأسلم أبو عبيدة لذلك إسلامَ الأقوياء الأصحاء العقلاء الذين لم يداخل إيمانهم جهلٌ أو تغرير أو خشية .

ونستفيد من الموقف فائدتين ، أو نصل فيه إلى نتيجتين منطقيتين ،

الأولى هى معرفة ما يشتمل عليه هذا الدين الإلهى العظيم من حق باهر، وحجة بالغة، وشواهد ساطعة قاطعة بأنه دين الحق ودين العقل «وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»، «قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ».

والفائدة الثانية هى أن البطل العظم أبا عبيدة — وقد كانت تلك ظروفَ إسلامه، واستجابته لربه — سيخلص لهذه الدعوة الإلهية الكريمة التى ارتضاها مؤمنا، واعتنقها مختارا، وأقبل عليها موقنا.

وسيكون الجندىُّ المتفتح القلب لها، المكينَ الصلة بها، البعيدَ الأثر فيها، لأنه لم يغرَّر به فيها، ولم يدلس عليه فى أمر من أمورها، بل تلقاها تلقىَ الرجلِ الرشيد، الذى يعرف ما يضره وما ينفعه، ويزن الأمور فيعتدل ميزانه.

وكذلك العهد بدين الله: ما تلقاه صحيح رشيد إلا آمن به، واستجاب له. ولا عجب فهو الهدى وهو النور:

«قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

أبو عبيدة من أهل الهجرتين

أسلم أبو عبيدة كما ذكرنا ، وكان من أهل السبق فى الإسلام ، ولم يكتف بإسلامه وعكوفه على عبادة ربه ، بل أحسن صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتمل فى سبيل تلك الصحبة ما احتمل الكرامُ الأولون فى صدر الإسلام : من عَنَتٍ واضطهاد ، وعذاب وإرهاق ، حتى رأى نفسه مضطراً للهجرة إلى الحبشة ، ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ، فصار بذلك من أهل الهجرتين .

وهذا شرفٌ لم ينله الكثيرون ، لأن الجمعَ بين الهجرتين فى صدر الإسلام وسامٌ عظيم من أوسمة الشرف والمجد ، إذ فى الهجرة إلى الحبشة تعرّضَ القومُ لفراق الموطن والأهل والمال ، وتعرضوا لمشقات الرحلة والسفر ، وتعرضوا لركوب البحر الذى لم يعتادوا ركوبه ، ولا أهواله ، وتعرضوا للقدوم على بيئة جديدة ، وقوم غرباء لم يروهم من قبل ، فإما أن يحسنوا لقاءهم ، وإما أن يسيئوا إليهم ، فهو على كل حال بلاءٌ واختبار ، وعند الامتحان يكرَمُ المرء أو يهان . . . ومن الامتحان نفهم معنى المحنة .

وفى الهجرة إلى المدينة وسامٌ آخر من أغلى أوسمة الفخار بنعمة الله الكبرى ، إذ فيها أيضاً ارتحالٌ وغربة ، وفراقٌ لأوطان وأموال واستقرار ، وفيها إيثارٌ لما عند الله على ما عند الناس ، وفيها تهيؤ لجهاد طويل فى سبيل الدعوة ، وفيها بيعٌ للنفوس والأرواح إلى الله العلى الشكور الذى اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . .

ولذلك نرى القرآن الكريم يحتفل بشأن المهاجرين ، ويعطّر ذكرَهم فيه ، ويسجل لهم بإخلاصهم أعظمَ المكانة والثواب ، فنراه يقول :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

(سورة البقرة ٢١٨)

ويقول : « فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ »

(سورة آل عمران ١٩٥)

ويقول : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

(سورة الأنفال ٧٢)

ثم يعود فيقول : « وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » .

(سورة الأنفال ٧٤)

ويقول : « ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

(سورة التوبة ٢٠)

ويقول : « وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مَاظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »

(سورة النحل ٤١ ، ٤٢)

ويقول : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَافُتِنُوا ، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

(سورة النحل ١١٠)

ويقول « وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللهُ رِزْقاً حَسَناً ، وَإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ، لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ ٱللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ » .

(سورة الحج ٥٨ ، ٥٩)

ويقول : « لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً ، وَيَنْصُرُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »

(سورة الحشر آية ٨)

ولقد هاجر أبو عبيدة فأحسن الهجرة : هاجر إلى الحبشة أولا وهاجر إلى المدينة ثانيا ، وجاهد أحسنَ الجهاد ، فلينتظر أجْزلَ الثواب . .

أمين هذه الأمة

كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقّب صحابته الأكرمين بألقاب تصوّر فضائلهم، وتزكى نفوسهم، وتقدر جهودهم، ولم تك هذه الألقاب هينة رخيصة الثمن، ولم يكن السبيل إليها مالاً أو جمالا أو نسباً، بل كان طريقُ الوصول إليها إيماناً صادقا، ويقيناً بليغاً، وعملا موصولا، وتعباً مرهقاً فى سبيل الله والدعوة.

ولقد أقبل أبو عبيدة رضى الله عنه على الإسلام راضياً مقتنعاً، مخلصاً متثبّتا. فكان لذلك شديداً فى دينه، عميقاً فى عقيدته، مخلصاً فى صحبته، متفانياً فى خدمة الرسول وخدمةِ الدعوة، مستمسكا بعروة الله الوُثْقَى التى لا انفصام لها، فأنعم عليه الرسول بلقب كريم، كان يغبطه عليه كثيرٌ من الصحابة، وهو لقب: «أمين الأمة». ويا له من نعت نبوى عظيم الدلالة، يصوّر ما استبان للرسول فى أبى عبيدة من إيمانٍ وإخلاص وامانة.

أخرج الحافظ الجزرى فى «أسد الغابة» عن أنس قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل أمة أمين، وإن أميننا — أيتها الأمة — أبو عبيدة بن الجراح[1]».

---

(١) ورد هذا الحديث بروايات مختلفة فى صحيح البخارى ومسند أحمد، وتاريخ الخطيب (الجامع الصغير للسيوطى) . فرواية أحمد فى مسنده عن عمر هى: «ان لكل نبى أمينا، وأمينى أبو عبيدة بن الجراح». ورواية البخارى عن أنس: «ان لكل أمه أمينا، وان أمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح» . ورواية الخطيب عن ابن عمر: «ان أمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح، وان حبر هذه الامة عبد الله بن عباس» . وفى كتاب «النهاية» لابن الاثير جاءت رواية هى: «لابعثن اليكم رجلا أمينا حق أمين» أى صدقا، وقيل واجبا ثابتا له الامانة، النهاية لابن الاثير، ج ١ ص ٢٤٣ .

وأخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران[1] إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث لنا رجلا أميناً ، فقال : « لأبعثن إليكم أميناً حقَّ أمين » ، فاستشرف لها الناس — أى تطلع لها الصحابة ، وطمع كلٌّ فى أن يكون صاحبَ هذا النعت ، والفائزَ بتلك البشرى — فبعث النبى صلى الله عليه وسلم معهم أبا عبيدة بن الجراح .

وفى رواية : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يارسول الله ، ابعث معنا أميناً حقَّ أمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نبعث معكما رجلا أميناً حقَّ أمين » ، فاستشرف لها أصحاب محمد ، فقال النبى : « قم يا أبا عبيدة » ! .

ويروى ابن هشام الموقف فى سيرته بالعبارة التالية :

« .. فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألاَّ نلاعنَك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجعَ على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياءَ اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنك عندنا رِضاً » .

قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائتونى العشيةَ أبعثْ معكم القوىَّ الأمين » ، فقال : فكان عمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارةَ قطُّ حبِّى إياها يومئذ ، رجاءَ أن أكون صاحبَها ، فرحت إلى الظهر مهجِّراً (مبكراً) ، فلما صلى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الظهرَ سلَّم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعاه فقال : « اخرج معهم ، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » .

---

(١) نجران : بلدة بين هجر واليمن ، انتشرت فيها المسيحية فى العصر الجاهلى ، وقد فتحها المسلمون سنة عشر من الهجرة ، ولم يرض وفد نجران بالاسلام ، بل امتنعوا عن قبوله ، ورضوا باعطاء الجزية ، فكانت ألف حلة فى صفر ، وألف حلة فى رجب ، ومع كل حلة أوقية من الذهب .

قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة ! ! ..

وروى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن أهل اليمن قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ، ابعث معنا رجلا يعلّمنا السنة والإسلام ، فأخذ النبى بيد أبى عبيدة فقال : « هذا أمينُ هذه الأمة » .

ونوفّق بين هذه الرواية ورواية وفد نجران بأن نقول : إن كان المراد من أهل اليمن فى الحديث الأخير هم وفد نجران فالقصة واحدة ، وإن كانوا غيرَهم فتكون هذه قصةً أخرى[1] .

ولعلك تستطيع أن تلمح فيما تستقبل من مواقف أبى عبيدة ومظاهر إخلاصه وإيمانه مسوّغاتِ ذلك التكريم الجليل .

---

(١) التاج الجامع للأصول ، ج ٣ ص ٣٤١ .

الله خير وأبقى

لقد كان أبو عبيدة عربيًّا خالصا ، وفى بيئته احترامٌ شديد للآباء ، وخضوعٌ مطلق أمامَ سلطانهم ، ولقد ظل أبو عبيدة على هذا الوضع سنواتٍ طوالا استمرت حتى زادت على خمس وعشرين ، ولكن الإسلام جاء فجذب عامراً إليه ، وعَلمه أن هناك ما هو خير من الآباء وأبقى من الأبوة . .

هناك العقيدةُ التى يفتديها صاحبُها بالأب والأم والولد والنفس ، وهناك الله ربُّ الأرباب ، وسيد الآباء والأبناء ، وواهب الحياة وموجد الأحياء ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يُقْذَف فى النار » . وقال : « من أحبَّ لله ، وأبغضَ لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

ها هو ذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه يهاجر ، ويتخذ من المدينة داراً للنصرة ، ومركزاً للقيادة ، ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، ويُعدهم خيرَ إعداد للانتصاف من الكافرين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربُّنا الله ، واختار الرسول لأبى عبيدة المهاجرِ أخاً كريما عظيما من بين الأنصار ، هو سعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنه .

وبدأ الجهاد بين الكتيبة المؤمنة الناشئة ، وبين كتائب الطغيان والكفران العاتية ، وحرص أبو عبيدة على أن يشهد المشاهدَ كلَّها مع الرسول ، وكانت غزوةُ بدر أولى هذه الغزوات ، وكان المسلمون

يومها قلةً فى عددهم وعدتهم ، حتى طمأن الله خواطرَهم وجنوبَهم بنصرة الملائكة تأتيهم من السماء : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

(سورة آل عمران ١٢٣)

وكان أبو عبيدة رضى الله عنه من السابقين المقدَّمين الثابتين يوم بدر ، ومن سوء حظه — أو من حسن حظه — أن والده عبد الله كان يومئذ فى صفوف المشركين ، وخرج يقاتل المسلمين فى بدر ، ورأى أبو عبيدة أباه فى صفوف الكافرين . وإنه لولدٌ يحترم والدَه . وابن لا يستطيع أن يجحد معانىَ الأبوة فى قلبه ، ولكنه فوق هذا مؤمن قد أسلم وجهه لله ، والله أعلى وأكبر .

وكأنما أراد أبو عبيدة أن يوفِّق ما استطاع بين حقِّ أبيه وحق دعوته ، فجعل يَحْذَر لقاء ابيه فى المعركة ، وينأى بعيداً عنه ، يجاهد فى جهات غيرِ الجهة التى فيها أبوه ، راجيا أن يكفيه غيرُه شأنَ أبيه ، ولكن الوالد الكافر المُدِلَّ بأبوته ، المتكبر بعنجهيته ، جعل يتصدى لابنه ويتعرض . والابنُ يحاذرُه ويُعرض عنه ، ولكن الوالد أكثرَ من التصدى والقصد ، فما كان من أبى عبيدة رضوان الله عليه فى الخالصين المخلصين ، إلا أن نسى الأبوةَ والبنوة ، ولم يذكر إلا ربه ودعوته ، فأقدم على أبيه فقتله إزهاقا لروح الباطل الطاغى ، وإحقاقا لكلمة الحق المستضعفة بين الباغين ، وكان ذلك العمل شاهداً جديدا من أبى عبيدة على يقينه وإخلاصه وأمانته ، وكان ذلك الإقدام نهايةَ الإيمان عند المؤمنين . . .

ويُروى أنه قد نزل فى ذلك قولُ الله تبارك وتعالى فى سورة المجادلة :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(سورة المجادلة ٢٢)

وصدق الله العظيم حيث يقول فى سورة التوبة : « قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

(سورة التوبة ٢٤)

وصدق الشاعر المسلم يوم ترجم عن هذا المعنى السامى بشعره فقال :

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم !

* * *

وفى رواية ذكرها النووى فى « تهذيب الأسماء[1] » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين أبى عبيدة وبين بلال بن أبى رباح الحبشى مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام . . .

وبلال هو ابن حمامة مولاة لبنى جمح ، وأبوه هو رباح الحبشى ، كان عبداً لأمية بن خلف . وبلالٌ نفسُه كان عبداً لأمية ، واشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه . .

وأبو عبيدة هو الحر ابن الحر ، وهو الحر ابن الحرة ، وهو العربى ابن العربى ، ولكن الإسلام جاء فسوّى بين الناس . . .

فانظر إلى المؤاخاة فى الله كيف جمعت وألّفت ، وانظر إلى الإسلام ماذا صنع بهذه النفوس ، وكيف صاغها من جديد صياغة الصفاء والنقاء ؟! . . .

(١) كتاب تهذيب الأسماء ج ١ ص ١٣٦ .

أبو عبيدة يوم أحد

نُكبت قريشٌ يوم بدر نكبةً كبرى ، واستطاع ثلثمائة مسلم أن يدحروا قرابةَ ألفٍ من المشركين ، فيقتلوا منهم ، ويجرحوا ، ويأسروا ، ثم يغنموا .

فاغتاظت قريش وجمعت جموعَها ، وخرجت بأشرافها ونسائها وقيانها ومعازفها وخمورها ، تريد لقاءَ المسلمين مرة ثانية فى أحد ، ليأخُذوا بثارات بدر ، وخرج الرسول بالمسلمين لقتال المشركين بعد ان خطب قومَه وقال لهم :

« لكم النصر ما صبرتم » .

وأعجب بعضُ المسلمين بكثرتهم وقوتهم ، ولكن الله أراد غير ذلك .. أراد أن يذكّرهم ويحذرهم ، فعصى الرماةُ أمرَ الرسول فاضطرب أمر الجميع ، وأقبلت الهزيمة بشدائدها ، وتقهقر بعضٌ وفرَّ بعض ، وثبت قليلٌ بجوار الرسول .

ولقد كان أبو عبيدة رضى الله عنه أحدَ أولئك الذين ثبتوا ورابطوا وأحاطوا بالرسول يدافعون عنه ويفدونه بأنفسهم ، ولما جُرح الرسول ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنته الشريفة أقبل عليه أبو عبيدة ، وأخذ يعالج نزعَهما بأسنانه . .

وأبو عبيدة صحابى محب للرسول ، فهو إذ يحاول نزعَ الحلقتين يحاول ذلك بلين ورفق ، حتى لا يؤذى الرسولَ ولا يؤلمه ، ولكن الحلقتين غائرتان ، فلا بد لهما من شدةٍ ما فى النزع حتى يخرجا ، وإن أبا عبيدة

ليترفق تارة ، فيرى ألم الرسول ، فيريد أن يقطع هذا الألم بسرعة فيشتد في النزع ، فيخشى على الرسول عاقبةَ ذلك . .

وهكذا تتعرض نفسه فى أثناء ذلك لمختلف الأحاسيس ومتناقض العواطف ، ولكنه يتجلد ، ويستعين ربه وينزع الحلقتين من الوجنة الطاهرة الشريفة ، ولكنهما تنزعان فى مقابل ذلك ثنيتين من أسنان أبي عبيدة رضى الله عنه ، فأصيب بالهتم ، وهو عيب فى غيره ، ولكنه صار جمالا عنده ، إذ حسن فمه بعد نزع الثنيتين « فما رؤى قط أحسن منه هتما » كما يقول التاريخ ، وذلك بفضل البركة النبوية ، والإخلاص فى العمل ، والتوفيق أولا وأخيراً من الله تبارك وتعالى الذى لا يضيع أجرَ من أحسن عملا .

ولقد قص سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه هذا الموقفَ بأسلوب واضح بليغ فقال :

« لما كان يوم أحد ، ورُمى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى وجهه ، حتى دخلت فى وجنتيه حلقتا المغفر[1] أقبلت أسعى نحو الرسول ، وأقبل إنسان من المشرق يطير طيرانا ، فلما توافينا عند الرسول وجدته أبا عبيدة ، وقد سبقنى فقال : أسألك بالله « يا أبا بكر » أن تتركنى لأنزع من وجهه – عليه السلام – الحلقتين ، فنزعهما حلقة حلقة ، وسقط مرتين على ظهره ، وسقطت له ثنيتان[2] ، فكان أثرم[3] بعد هذا » ! .

انظر – يا رعاك الله – إلى تعبير أبى بكر : « وأقبل إنسان يطير طيراناً » ألست تجد فى ذلك عمقَ الحبِّ من أبى عبيدة للرسول ، وصدقَ وفائه له ؟ . ثم انظر إلى قول أبى بكر أيضاً : « وقد سبقنى فقال : أسألك

---

(١) المغفر : زرد من الدرع يحفظ الرأس والوجه وهو الخوذة .
(٢) الثنيات من الاضراس الاربع التى فى مقدم الفم .
(٣) الثرم : انكسار السن من أصلها .

بالله يا أبا بكر أن تتركني لأنزع من وجهه عليه السلام الحلقتين » ! .
أرأيت كيف تعجل الخيرَ لحرص على أن يسبق فيه ؟ . أرأيت كيف سأل
أبا بكر ، وأقسم عليه أن يترك له شرفَ القيام بهذا الواجب ، ولذةَ
المحاولة لدفع الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ؟ .

أرضاك الله أيها الأمين ، بقدر ما أرضيتَ رسوله ، وحرصتَ على
خدمته وحفظت الوفاءَ له .

نجـــده

فى ربيع الآخر سنة ست بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد ابن مسلمة إلى بنى ثعلبة وبنى عوال ، وهم بذى القصة ، وبينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا ، طريقَ الربذة ، فى عشرةِ نفرٍ ، فوردوا عليهم ليلا ، فأحدق بهم القومُ وهم مائة رجل ، فتراموا ساعة من الليل ، ثم حملت الأعرابُ عليهم بالرماح فقتلوهم ، ووقع محمد بن مسلمة جريحا فَضُرِبَ كعبهُ فلا يتحرك ، وجرّدوه من الثياب .

ومر بمحمد بن مسلمة رجلٌ من المسلمين فحمله حتى ورد به المدينة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا إلى مصارعهم ، فلم يجدوا أحداً ، ووجدوا نَعَماً وشاء ، فساق أبو عبيدة ذلك ورجع به إلى النبى .

نعوذ بالله

كانت الشروط التى قبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين فى صلح الحديبية شديدةً فى ظاهرها على المسلمين، ولكن الرسول قبلها لما أراه الله من الفوائد العظمى التى سيحصل عليها المسلمون من وراء ذلك الصلح .

وغضب عمر من هذه الشروط ، فذهب إلى أبى بكر يقول له : أليس برسول الله ؟ .

قال أبو بكر : بلى .

قال عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ .

قال أبو بكر : بلى .

قال عمر : أوليسوا بالمشركين ؟ .

قال أبو بكر : بلى .

قال عمر : فعلام نعطى الدنيةَ فى ديننا ؟ .

قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غَرْزَه ، فإنى أشهد أنه رسول الله .

قال عمر : وإنى أشهد أنه رسول الله .

وذهب عمر إلى النبى يحاوره فى ذلك ، فقال الرسول . أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمَره ، ولن يضيعنى ! .

وجعل عمر يحاور الرسول ، وسمعه أبو عبيدة بن الجراح ، فقال له : « ألا تسمع يابن الخطاب رسولَ الله يقول ما يقول ؟ نعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . ؟ !

فجعل عمر يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ثم قال الرسول : « ياعمر ، إنى رضيتُ وتأبى » ؟ ! .

وكان عمر بعد ذلك يقول :

مازلتُ أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق ، مخافةَ كلامى الذى تكلمت به حتى رجوتُ أن يكونَ خيراً . .

وهذه الجملة التى قالها أبو عبيدة لعمر تدل على قوة إيمانه ، وشدة تسليمه لله ولرسوله ، وهى تصور نفسية أبى عبيدة ، وترينا كيف استقام على طريق الهدى ، فلم يتلجلج ولم يتردد . . .

تواضعه ورغبته عن التفاخر

قد يكون المرء قليلاً في حياته ، تافهاً في أمره ، حقيراً في مرتبته ، ثم يتعالى ويتفاخر ، ويدعى لنفسه ما ليس لها ، وذلك شرُّ الناس ، وأضلهم طريقة . . .

وقد يبنى المرءُ نفسَه بنفسه ، ويحقق لشخصه ما يطمح إليه من المجد ، وما تتعلق به عينه من السمو والعظمة ، ثم يفتخر ذلك المرءُ بما صنع ، أو يحب أن يعرف الناسُ ما بنى ، وذلك محدودُ الشر ، محتمل السوء . .

وقد يصل المرء بجده واجتهاده ذروةَ المجد ، وغاية العظمة ، ثم يتواضع ولا يتباهى ، ويحب أن يظل مجهولا او شبه مجهول ، وذلك هو الإنسان الرفيع الكامل . . .

وأبو عبيدة رجل قد شيد حياَته بيديه ، وكسب المجدَ بنضاله وكفاحه ، وبلغ المنزلة المرموقة والقمة السامقة ، ومع ذلك ظلَّ حافظاً لخلق التواضع ، متحلياً بشيمة اللين والزهد ، مُعرضاً عن مواطن التباهى والفخار ، مستخفاً برعونة المنافسة الباطلة ، أو التسابق الفارغ ، وبقى يرى نفسَه نفسَ رجل همُّه أن ينال كلَّ يوم من الله أجرا . وإن لم ينل فى دنيا الناس ذكراً . . .

وقف أبو عبيدة ذات يوم بين جنوده ، وهو أمير على الشام ، فقال :

« أيها الناس ، إنى امرؤ من قريش ، وما منكم من أحمرَ ولا أسودَ يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى فى مسلاخه » . أى فى جلده . . .

وفى هذه الجملة القصيرة البليغة أبان أبو عبيدة أنه لا يرى لنفسه على أحد من جنوده فضلا يتباهى به أو يتعالى ، وانه يتمنى ان يرى واحداً

من أولئك الجنود أكثرَ منه تقوى ، فيغبطه على ذلك ، ويود لو جعله الله فى جلد ذلك الجندى التقى ، إعجابا من أبى عبيدة به ، وحرصاً على أن يكون مثله فى التقوى ...

وهذا الكلام حينما يصدر من رجل عظيم إلى الناس عامة يكون جليلا و نبيلا ، فكيف وهو يصدر من أمير عظيم إلى جنود مرءوسين له، يسمعون منه ويطيعون ، ويرون فيه قدوتهم العالية ، ومثَلهم الرفيع ؟ .

لا جرم أن هذا القول يكشف عما انطبعت عليه نفس أبى عبيدة من تواضع وزهد ..

***

وَ ثمَّـة شاهدٌ آخر على عزوف أبى عبيدة عن الإمارة ، وعلى عدم حبه لِما تواضع الناسُ على حبه من مظاهر السيطرة ، ومواقف التحكمِ والسيادة ...

رُوى أن عمرو بن العاص لما كان فى غزوة « ذات السلاسل » على مشارف الشام ، لتأديب جموع من قضاعة ، وخاف أن يؤخذ من جهته التى هو فيها ، وأن تصيبه الهزيمة ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنجده ، ويطلب منه المددَ والمعونة ، فندب الرسول صلوات الله وسلامه عليه المهاجرين والأنصار للخروج إلى تلك النجدة ، فانتدب[1] أبو بكر وعمر، مع طائفة من كرام المهاجرين ، وجعل الرسول أبا عبيدة عليهم أميرا ...

فلما قدم أبو عبيدة بمن معه على عمرو بن العاص — وكان عمرو رجلا مقداماً طموحا ، يحب أن يكون جامعاً بين ذكر الدنيا وأجر الآخرة — قال عمرو لأبى عبيدة وجنوده : انا أميركم ، وأنا أرسلت إلى رسول الله أستمده بكم .. فقال المهاجرون الذين كانوا مع أبى عبيدة :

---

(١) أى استجاب .

هل أنت أميرُ أصحابك ، وأبو عبيدة أميرُ المهاجرين . فعاد عمرو يُظهر حرصه على الإمارة قائلا : إنما أنتم مدد أمددتُ بكم ...

وهنا أراد الرجل المتواضع أبو عبيدة أن يحل المشكلة وينهى المسألة ، فقال : اعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : « إذا قدمتَ على صاحبك فتطاوعا » وإنك إن عصيتنى لأطيعنك .

فقال عمرو : فإنى الأمير عليك .

فقال أبو عبيدة : دونَك فصلِّ بالناس .

وسلّم إليه الإمارةَ ، واستمع له وأطاع ...

ليس الأمر هنا مقصوراً على تنازل أبى عبيدة لعمرو عن الإمارة ، بل تبدو هنا شدةُ الحرص من عمرو على المطالبة بالإمارة ، وهذا قد يثير فى نفس أبى عبيدة — وهو بَشَرٌ — الرغبةَ فى الدفاع عن شخصه ، والطلب لحقه ، والتنائى عن مظنة الاستخفاف به ، أو عدم جدارته بالإمارة

ثم تبدو مطالبةُ الجنود القادمين مع أبى عبيدة بأن يكون هو الأميرَ عليهم ، وهذه المطالبة قد تنبِّه غافلا من أبى عبيدة ، وقد تلفته إلى شىء لم تتجه إليه همته أو رغبته من قبل ، وقد تثير فيه معنى الزهو والخيلاء والاعتزاز برأى المطالبين بإمارته ...

ولكن أبا عبيدة الأصيلَ فى تواضعه ، الصادقَ فى عزوفه عن مواطن التفاخر ، لم يَـثُرْ فى نفسه شىءٌ من ذلك ، ولم يراجع عمْراً فيما قال ، ولم يستجب لأتباعه فيما حرضوه عليه ، بل قدَّم عَمْراً إلى الإمارة ، لأن أبا عبيدة يجاهد لله ، لا لعرض من أعراض هذه الحياة ...

* * *

وهناك موقف يقابل هذا الموقف ، مع اتفاق الموضوع ، فقد كان أبو عبيدة رضى الله عنه يحاصر أهلَ الشام ، وجاءه مَدَدٌ يعينه ويساعده

فى مهمة الفتح ، وكان على راس هذا المدد خالدُ بن الوليد ، فرَّحب به أبو عبيدة ، وأجلَّ مقامه ومنزلته ، وكان يرى لخالد فضلَ الإعانة والنجدة ، حتى إنه لما حان وقتُ الصلاة قال لخالد : تقدَّمْ فصلِّ بالناس (إماما) ، فأنت أحق ، أتيتنى تُمدُّنى ...

لكن خالداً لم ينس فضلَ أبى عبيدة ولا مكانته ، فرفض ذلك وقال: ما كنت لأصليَ قدَّامَ رجل سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « لكل أمة أمين . . وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ...

تستطيع أن تقارن بين هذا الموقف وموقف عمرو مع أبى عبيدة ، لتظهر لك صفةُ التواضع كاملة فى نفس أبى عبيدة .

* * *

ويقتضينا واجبُ الإنصاف ألا نترك هذا الجزءَ من الحديث دون أن نعرِّج فيه على مكرمة لخالد رضى الله عنه فى موقف المدد السابق ، فقد أمر الخليفة أبو بكر خالداً أن يذهب لينجد أبا عبيدة ومن معه ، وقال الخليفة لخالد فى كتابه : « فإذا التقيتم فأنت أميرُ الجماعة » .

وكتب الخليفة أبو بكر كتاباً ثانياً إلى أبى عبيدة يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإنى قد وَلَّيتُ خالداً قتالَ الروم بالشام ، فلا تخالفْه ، واسمع له وأطع أمره ، فإنى وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنةً فى الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبلَ الرشاد ، والسلام عليك ورحمة الله » .

يا لروعة البيان!... ويا لسمو الأخلاق!... ويا لصراحة الرجال!... الخليفة يصارح فيقول لأبى عبيدة إنك قد صرت مرءوساً بعد أن كنت رئيساً ، ورئيسك هو خالد، فاسمع وأطع ولا تخالف ، وهو أمير عليك ، ولكن ... لا تحسبن أنك عندى مهين أو ظنين ، فأنت عندى خير منه فى أمور ... ولكنى من جهة أخرى لم أعزلك افتئاتاً عليك ، ولم أعيِّن خالداً ميلاً معه أو هوى له ، ولكن لأنى ظننت — ويا لروعة التعبير

بقوله ظننت ! — ظننت أن له خبرةً بالحرب قد لا تكون لك كما هى له !.
ظننتُ والله عنده علم اليقين ، ولذلك أسأل الله أن يريد « بنا وبك
سبل الرشاد » ! ! . .

ونعود إلى موضوعنا ...

لقد تسلم خالدٌ كتابَ التعيين ، وتسلم أبو عبيدة كتاب العزل ، فماذا
يبقى إلا التنفيذ ؟ ...

ماذا يبقى ؟ ! . بقي الكثير ، والكثير جداً . .

بقيت أخلاق الرجال ، وماذا تكون الرجال بدون أخلاق ؟ ...

لقد سارع خالد فأرسل إلى أبى عبيدة كتاباً يبلغه فيه الخبر بألطف
أسلوب ، ثم يهوّن عليه أمرَ العزل أكرمَ تهوينٍ ، ثم يسجل اعترافه
بفضل أبى عبيدة ، ويُثنى عليه بالخير والإحسان ، وما أجمل التقدير إذا
جاء وافياً كريماً من الأمير المقبل إلى الأمير المنصرف عن عريش القيادة
إلى صفوف الجنود ...

كتب خالد يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لأبى عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد..
سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . . أما بعد ، فإنى
أسأل الله لنا ولك الأمنَ يوم الخوف ، والعصمةَ فى دار الدنيا ، فقد
أتانى كتابُ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأمرنى بالسير إلى
الشام ، وبالمقام على جندها ، والتولّى لأمرها . . والله ما طلبتُ ذلك
ولا أردته ، ولا كتبت إليه فيه ، وأنت — رحمك الله — على حالك
التى كنت عليها ، لا يُعصى أمرُك ، ولا يخالفُ رأيك ، ولا يُقطع
أمرٌ دونك ، فإنك سيدٌ من سادات المسلمين ، لا يُنكر فضلك ،
ولا يُستغنى عن رأيك ، تمّمَ الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ،
ورحمنا وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله » ...

أرأيتَ كيف قدَّم خالدٌ ذكرَ أبى عبيدة على نفسه ؟ .. وكيف دعا بدعوات فيها تذكيرٌ بخوف الآخرة ، وذمٌّ لأعراض الدنيا ؟ ... وكيف ذكر التوليةً فى تلميح ، ولم يذكر العزلَ بتلميح أو تصريح ؟ ... وكيف قطع على نفسه العهدَ ألا يفعل شيئاً دون أبى عبيدة ؟ .. وكيف أثنى على أبى عبيدة الثناءَ العاطر الجميل ؟ . .

ذلك موقف حميدٌ لخالد بن الوليد ، ومن يدرى فقد نشهد فيما نستقبل موقفاً لأبى عبيدة يقابل فيه الجميلَ بالجميل ، لا على سبيل المقارضة ، ولكنها طبائع الفحول من الرجال تستقى من ينبوع واحد كريم ! . . .

زهد أبي عبيدة

ويتصل بالناحية السابقة ناحية قريبة منها فى حياة أبى عبيدة ، وهى ناحية الزهد والورع .

وبعض الناس يزهدون زهدا كاذبا ، لأنهم لا يجدون ما يطمعون فيه ، فيزهدون فيما لا ينالون ، ويعفون عما لا يقدرون عليه .

وبعض الناس يزهدون زهدا لئيما خبيثا . . يزهدون فى القليل التافه ، نفاقاً ورياء ، وترتع أيديهم فى الكثير الحرام عليهم من وراء ستار .

ونتذكر فى هذا المقام قصةَ ذلك الشاب الذى كان على عهد عمر رضى الله عنه ، وعثر على تمرة ، فرفعها بين أصابعه ، وجعل يسير بين الناس قائلا : يا من ضاعت له تمرة ؟ . . .

ورآه عمر فغضب منه وثار عليه وقال له : « كُلْها يا صاحبَ الورع البارد » ! . . .

أما الزهد الحقّ والورع الصادق فهو أن يزهد المرء وهو قادر مستطيعٌ سليمٌ مالك ، ولقد كان أبو عبيدة رضى الله عنه قادرا على أن يكسب متاع الحياة خيرَ الكسب ، فقد كان ظاهرا ، وكان قويا ، وكان موهوبا فى عقله وحيلته .

ولقد هُيِّئت له فى الفتوح والمغانم فرصٌ كثيرة لكى يَعُبَّ ويمتلىء ولكى يجمع ويشيِّد ، ولكنه تعفف وتورع وزهد ، وعاش فقيرا ، ومات فقيرا ، ولم يخلِّف وراءه ما يجعلنا نظن أن الدنيا كانت همَّه فى يوم من الأيام .

أرسل عمر بن الخطاب يوما إلى أبى عبيدة بأربعة آلاف درهم ، وقال

لحاملها : انظر ما يصنعه فيها . . فقسمها أبو عبيدة وهو فى مجلسه . . ثم بعث عمر بمثلها إلى معاذ ، فقسمها أيضا إلا شيئا قليلا قالت له امرأته : نحن نحتاج إليه . .

فلما أخبر الرسولُ عمرَ بذلك قال : « الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا » .

* * *

ولقد روى هشام بن عروة عن أبيه قال : قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : أين أخى ؟ .

قالوا : من ؟ .

قال : أبو عبيدة . . . قالوا : يأتيك الآن .

قال : فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلم عليه وسأله ، ثم قال للناس : انصرفوا عنا . . .

فسار معه حتى أتى منزله فنزل عليه ، فلم يرَ فى بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : لو اتخذت متاعا ؟ — أو قال : شيئا .

قال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين ، إن هذا سيبلغنا المقيل . .

وفى رواية عن ابن عمر أن عمر حين قدم الشام قال لأبى عبيدة : اذهب بنا إلى منزلك ،

قال : وما تصنع عندى ؟ ماتريد إلا أن تعصر عينيك علىّ ! .

قال : فدخل منزله فلم ير شيئا .

قال : أين متاعك ؟ لاأرى إلا لبدا وصحفة وشنا (قربة) وأنت أمير ، أعندك طعام ؟ ، فقام أبو عبيدة إلى جَـوْنه (سلته) فأخذ منه كسيرات فبكى عمر . . .

فقال له أبو عبيدة . قد قلت لك إنك ستعصر عينيك على ، يا أمير المؤمنين يكفيك ما بلغك المقيل . . .

فقال عمر : غـيرتنا الدنيا كلّـنا غيرك . يا أبا عبيدة ! . . .

بين عمر وأبي عبيدة

فى العام السابع عشر، أو الثامن عشر — على خلاف بين المؤرخين — ظهر الطاعون فى العراق ومصر ، ثم استقر بالشام ، وكان فى الخلافة عمر بن الخطاب ، وحدث أن خرج عمر فى تلك السنة غازياً ، ومعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار ، فلما كان على مسافة من أرض الشام ، خرج إليه أمراء الأجناد وأخبروه بخبر الطاعون، وخوّفوه منه ، وأنبئوه أنه قد أهلك خلقاً كثيرا ، وأشاروا عليه بالرجوع .

فأراد عمر قبل أن يقطع بأمر أن يستشير القوم ، فجمعهم وعرض الأمر عليهم ، فاختلفت آراؤهم ، فمنهم المشير بمواصلة التقدم، ومنهم المشير بالعودة ، وكان من بين القائلين بالرجوع « مهاجرة الفتح » . . .

فأصبح عمر عازماً على الرجوع ، فقال له أبو عبيدة : أفِراراً من قَدَر الله يا عمر ؟ . فأجابه عمر : « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيتَ لو أن رجلا هبط وادياً له عُدْوَتان (ضفتان) ، إحداهما خِصْبَةٌ والأخرى جَدْبَة ، أليس يرعى مَنْ رعى الجدبةَ بقدر الله ، ويرعى مَنْ رعى الخصبةَ بقدر الله ؟ » .

ثم أراد عمر أن يستطلع رأى أبى عبيدة على جليته ، وأن يعرف برهانه فى قوله ، أو يقنعه بحجته . فاختلى به ناحيةً دون الناس ، وبينما الناس كذلك إذ أقبل عبد الرحمن بن عوف ، وكان غائباً عن القوم ، لم يشهد خلافَهم بالأمس ، فسأل عبد الرحمن : ماشأن الناس ؟ فأخبروه الخبر .

فقال : عندى فى هذا علم .

قال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدق ، فماذا عندك ؟ .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه »[1] .

فقال عمر : فلله الحمد ، انصرفوا أيها الناس . .

وعاد بهم إلى الحجاز . . .

***

هذه قصة التاريخ ، ونلاحظ فيها أولاً أن عمر قد أظهر فى ردِّه على أبى عبيدة احترامَه له ، وتوقيره لشخصه ، فقوله : « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! » ينطوى من غير شك على إجلال وإكبار .

ثم نلاحظ ثانياً أن كلا من أبى عبيدة وعمر لم يخطىء فيما ذهب إليه ، لأن كلا منهما نظر إلى الموضوع من جانب ، وحكم عليه حكماً صحيحاً صادقاً ، ومن الممكن الجمعُ بينهما والاتفاق على رأى فى الموضوع يشملهما ويكونان لذلك الرأى دعامتين ينهض عليهما :

أما أبو عبيدة رضى الله عنه فكان يريد أن يقرِّر كلمةَ الرجل المؤمن الموقن ، الذى أسلمَ وجهه لله ، والذى اعتقد أن الأسباب كلَّها بيد الله ، وأن المؤثر الحقيقى فى الأشياء هو الله ، وأن الذى يستطيع أن يسلب المؤثراتِ تأثيراتها هو الله ، وما تلك الأسباب الظاهرية إلا مظاهر أجراها الله ، وأجرى فيها ما أجرى ليظهر قدرتَه وسنته ، وهو المسيطر عليها أولا وأخيراً ، سبحانه هو الله الواحد القهار .

وأما عمر رضى الله عنه فكان يريد أن يقرر كلمة الرجل الذى يُحسن

---

[1]) فى الجامع الصغير للسيوطى ، ج ١ ص ٩٢ جاء نص الحديث : « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه ، واذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه » رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن عبد الرحمن ، ورواه النسائى عن أسامة بن زيد ، وهو حديث صحيح .

التصرفَ والاختيار مع تأكد الإيمان بالأقدار ، والذى يفهم أن الكونَ كلَّه لله ، وأن الأمور جميعها بيد الله ، وأن اليمين واليسار ، والشمال والجنوب ، كلها من قَدَر الله ، وتحت قدر الله . والله قد أعطى المرءَ عقلا وتمييزاً وكسبا ، فإذا أحسن التصرفَ والتمييز فتجنب الشر وصَاحَبَ الخير ، فلا يقال إنه قد فَرّ من قدر الله ، ولكن يقال إنه انتقل من قدر لله إلى قدر آخر لله ، ونحن حيثما ذهبنا وأنىَّ حللنا فى قدر الله ، وتحت سلطان الله ، « ألا إلى الله تصير الأمور » .

وبهذا التفسير نستطيع فى يسر وسهولة أن نوفق بين الآثار التى جاءت بشأن العدوى ، وظاهرها الاختلاف أو التناقض، وليس ثَمَّةَ فى الحقيقة خلافٌ أو تناقض ، وإنما هو الفهم السريع العاجل ، أو النظر السطحى الجزئى ، وعدم التدبر فى معانى النصوص وأهدافها ومناسباتها هو الذى يوحى بذلك الحكم الخاطىء . . .

فقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا عَدْوى ولا هامةَ ولا صَفَرَ » :

فقال أعرابى : يا رسول الله ، فما بالُ الإبل تكون فى الرمل كأنها الظِّباء ، فيخالطها البعيرُ الأجرب فيجربها ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن أعْدَى الأول » ؟ » .

ومراده أن الأول لم يجرب بالعدوى ، وإلا للزم الدور والتسلسل ، بل بقضاء الله وقدرته ، فكذلك الثانى وما بعده ، وإن يكن الأثر الظاهر يرجع إلى العدوى ، والخالق للجميع هو الله ، والحكمة موجودة : سواء ألاحت لنا أم دَقَّتْ علينا ، والله هو اللطيف الخبير .

وفى حديث ابن مسعود الذى خرَّجه الإمام أحمد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يعدى شىء شيئاً » قالها ثلاثا .

فقال أعرابى . يارسول الله ، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها ؟ .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « فما أجرب الأول ؟ ، لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كلَّ نفس ، وكتب حياتها ، ومصابها ، ورزقها » .

ومراده أيضاً أنه لا يعدى شىء شيئاً بقوة ذاتية فيـــه ، بل بقدرة الله وتأثيره .

* * *

هذه بعض النصوص فى توجيه النظر إلى العقيدة الصحيحة فى أن المؤثر الأول هو الله ، وهناك نصوص مقابلة تدعو إلى الحيطة والحذر ، وعدم التعرض للأمراض المعدية ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يورد ممرض على مصح » . والممرض صاحب الإبل المريضة ، والمصح صاحب الإبل الصحيحة .

وكذلك قال النبى صلوات الله وسلامه عليـه : « فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد » . وقد تقدم كذلك أنه قال عن الطاعون : « إذا سَمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه[1] » .

وقد استنبط الباحثون المحدثون من هذا الحديث الأخير الإشارةَ النبوية إلى نظام « الحجر الصحى » الذى يزعم بعض النـاس أنه مفخرة

---

(1) فى سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى : « وروى عن عامر بن سعد بن أبى وقاص حدثنا محمد بن المنذرى عن عامر بن ســعد بن أبى وقاص عن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذكر الطاعون عنده ، فقال انه رجس أو رجز ، عذبت به أمة من الأمم ، وقد بقيت منه بقايا ، فاذا سمعتهم به بأرض فلا تدخلوها ، واذا وقع وانتم بأرض فلا تهربوا منها قال محمد بن المنذرى : فحدثت بهذا الحديث عمر ابن عبد العزيز ، فقال : هكذا حدثنى عامر بن سعد بن أبى وقاص » .

من مفاخر العصر الحديث . مع أنه من تعاليم رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ومن الممكن أن نخلص من هذا الاستعراض بخلاصة ، هى أن نعتقد اعتقاداً قوياً وجازماً أن الأمور كلها بيد الله ، وأن التأثير أولا منه ، وأن الأسباب الظاهرية عوارض وضع الله فيها ما شاء من التأثيرات ، ويستطيع أن يسلبها هذه التأثيرات عندما يشاء .

فلنؤمن بالله أولا ، ولنملأ قلوبنا بجلاله ورهبته ، ولننتصح بأمره ، فلا نلقى بأيدينا إلى التهلكة ، بل نتذكر أن الذى خلق الداءَ خلق الدواء ، وأن لكلِّ علة لها علاجها عدا الموت ، وشعارنا فى ذلك قول الرسول : « اعقلها وتوكل » ! .

حفظه لحقوق سواه

لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وزُلزلت الأرض بالمسلمين زلزالها لذلك الهول الشديد الذى لم يتوقعوه ، ولتلك النكبة الـ..ى التى لم يرتقبوها ، مع أن الرسول بشر ، ومع أن القرآن الكريم ..د قال عنه من قبل :

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » [1] ؟ . وقال : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [2] . » وقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [3] » .

ونزل المصاب على أكثرهم نزولَ الصاعقة التى أفزعتهم وأذهلتهم ، واضطرب حبلُ الأمة اضطراباً مخيفاً ، وكان لابد للأمة من راعٍ يرعاها بعد موت نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولابد لها من خليفة يخلف الرسول فى تسيير الأمور وضبط النظام ، ومواصلة الدعوة إلى الله ، ونشر الإسلام بين الناس .

ولقد كان أصحاب محمد رضوان الله عليهم مشغولين بالدين والجهاد أكثرَ من اشتغالهم بالرياسة والإمارة ، ولكن منصب الخلافة بعد

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .
(٢) سورة الانبياء آية ٣٤و٣٥ .
(٣) سورة الزمر آية ٣٠

رسول الله تطمح إليه عيونُ الماجدين من المؤمنين ، فليس منصباً دنيوياً فقط ، ولكنه — أولا وقبل كل شيء — منصب دين ودعوة وجهاد ، وفيه يتهيأ للخليفة نهوضٌ بتبعات وأعمال تزيده عند الله جلالة ومثوبة .

فلا عيب ولا عجب أن تطمح إلى هذا المنصب الإسلامى الكبير الكريم عينُ هذا أو ذاك من عيونُ الصحابة العظماء ، فلا يأبى الكرامة إلا لئيم ، ولا يعاف المجدَ إلا حقير ، ولا يفر من تبعات الجهاد والدعوة إلا صغير أو ضئيل .

وهؤلاء أتباع محمد عليه الصلاة والسلام كانوا فى الدنيا عمالقةً بمجدهم وعزائمهم ، وكانوا فى سبيل مبادئهم يستهينون بكل خطير ، ولا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ! ...

وكان الجلال المحيط بمنصب الخلافة لرسول الله يجعل عيونَ الأمة تتطلع أول ما تتطلع فى هذا الشأن إلى القلة المصطفاة من أوائل السابقين إلى الإسلام ، البارزين فى دعوته ، الظاهرين فى ميادينه ، من أمثال أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، فأين كان أبو عبيدة حين ذاك .. ؟ ! وهل تطلعت عيون المتطلعين طامعين أو طالبين أن يكون أبو عبيدة أحدَ المرشحين لمنصب الخلافة ؟ .

لعل أنظار العامة يومئذ لم تكن تستقر طويلا على أبى عبيدة — بخصوص هذا الشأن — كما تستقر على غيره ، ولكن الواقع أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يرون أبا عبيدة من طليعة الصالحين لتولى هذا المنصب الخطير ، فهذا عمر الفاروق يقوم بجولة استطلاعية فى محيط الصحابة ، ليرى كيف يختارون الخليفة ، وكيف يقضون على الفتنة فى مهدها ، ويلقى عمر أبا عبيدة ، فيعرض عليه أمرَ الخلافة قائلا : هَلُمَّ يا أبا عبيدة أبايعك ، فإنى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنك أمين هذه الأمة ! . .

وهنا يظهر أدبُ أبى عبيدة وذوقه وحفظه حقوقَ سواه ، ويظهر حرصه على مكارم الأخلاق أكثرَ من حرصه على أسباب المجد ، وتظهر رعايته لحرمة أصحاب الفضل والحرم أكثرَ من رغبته فى المنصب أو المغنم ، حتى ولو كان مغنما روحياً معنوياً . . .

لقد تذكر أبو عبيدة هنا أبا بكر رضى الله عنه ، وتذكر سبقَه إلى الإسلام ، وتصديقَه للرسول ، وبذله للمال فى سبيل الله ، وصحبته الطويلة الجميلة لمحمد ، وثناء محمد عليه فى مواطن كثيرة ، واستخلافَه له وهو مريض فى الصلاة بالناس .

تذكر أبو عبيدة كلَّ هذا ، فأجاب عمر قائلا : كيف أصلى — ياعمر — بين يدى رجل أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤُمَّنا حين مرض[1] .

هذا موقف سريع نفهم منه أن رجلا كعمر ، وهو البصير بالأمور الخبير بالرجال ، كان يرى أن أباعبيدة أهلٌ للخلافة ، وكان يرى أنه إن لم يكن الشخص الذى يجب أن يختار لها ، فهو على أقل تقدير من طليعة المرشَّحين لها ، الجديرين بحمل تبعاتها . .

ونحن نرى القوم فى يوم « السقيفة » ، ونرى أبا بكر يتحدث مجمِّعاً وموحداً ، وفى آخر حديثه يقول : « وأنا أرضى لكم أحدَ هذين الرجلين : عمر بن الخطاب ، وأبا عبيدة بن الجراح » . .

فتلك شهادة أخرى من الرجل الذى أجمعت عليه الأمة ، واختارته

---

(١) أى كيف أكون اماما للمسلمين فى الصلاة وفيهم أبو بكر ، لان الخليفة كان يؤم المسلمين . وفى رواية أخرى : أتى عمر أبا عبيدة ، وذلك بعد وفاة النبى ، فقال : ابسط يدك لأبايعك ، فأنت أمين هذه الامة على لسان رسول الله . فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فهة (سقطة) قبلها منذ أسلمت ، أتبايعنى وفيكم الصديق وثانى اثنين ؟ » .

خليفة لها بعد قليل من ذلك الحديث .. إنه يسوى بين عمر وأبى عبيدة فى ترشيحهما للأمر ، وفى ذلك عرفان لقدر أبى عبيدة ، وفيه أيضاً مبلغ أدب أبى عبيدة ، حينما لم تحدثه نفسه بأن يطمع فى أمر ، بينما يوجد له من ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامةَ الناس من قبل ..

ولو أسرعنا النُّقْلةَ إلى آخر العهد بعمر فى هذه الدنيا ، لرأيناه صريعاً مُثْخَناً بجراح الاعتداء عليه ، وهو فى الحالة التى يؤمن فيها الكافر ، ويتقى الفاجر ، فكيف بالمؤمن الموقن البار ؟ ...

ولرأيناه يقول وهو يتحدث عمن يستخلفه : « ولو كان أبو عبيدة ابن الجراح حياً لاستخلفتُه ، فإن سألنى ربى : لم استخلفتَه ؟ قلت : إى ربى .. سمعت عبدَك ونبيك محمداً يقول : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ! ...

أبو عبيدة فى الميدان

لا يستطيع مطالعٌ لصفحات الجهاد الأولى فى صدر الإسلام ، أن ينكر مقامَ أبى عبيدة المشهود المذكور المشكور فى ساحة الجهاد والفتح ، ولقد كان أبو عبيدة حُساما فى يد أبى بكر وعمر ، وجَّهاه يمينا وشمالا ، فصدَّ غارات ، وقهر جيوشا ، وفتح بلاداً ، ونشر دعوة . وعاش ما عاش فى الميدان ، وجاهد ما جاهد ، وغنم ما غنم ، ورأس ما رأس ، وقاد ما قاد ، وظل على الرغم من كل ذلك يعيش جندياً متخفِّفاً من أثقال الفخر ، وأعراض الحياة ، وزينة الدنيا ، فلا عُجْبَ ، ولا تمتع ، ولا تملك ، بل عاش فقيرا ، وجاهد طويلا ، وكسب للمسلمين كثيرا ، ومات فقيراً ! ...

لقد كان أبو عبيدة يلى فى أول الأمر شئونَ المال فى خلافة أبى بكر ، فهو له كوزير المالية اليوم ، ولما بدأ أبو بكر فى قتال الروم ، عقد لواء لأبى عبيدة ، وأمره بالتوجه نحو البلقاء فحمص ، وكانت هناك ألوية أخرى فى هذه الحرب ، ولكن أبا بكر قال لأصحاب الألوية : إذا اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة عامر بن الجراح .

وذهب جيش أبى عبيدة إلى « معان » ثم « مواب » ثم « الجابية » ثم « حمص » . ولما اقتضى نظام الحرب اجتماعَ القواد كتب عمرو بن العاص — أحد القواد — إلى زملائه يقول : « إن الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلَبْ عن قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعدَّ لنا » ..

فجلا أبو عبيدة عن حمص ، وردَّ إلى أهلها الجزيةَ التى أخذها منهم

قائلا : « قد شغلنا عن نصرتكم ، فأنتم على أمركم » . وهذه الكلمة من أبى عبيدة تبين لك بوضوح عدالة الإسلام ، وتفهمك أن فتوح المسلمين لم تكن للبغى والطغيان ، وإنما كانت للهدى ونشر الإيمان ، كما تفهمك أن هذه الروح الطيبة لابد أنها تدفع إلى أحسن معاملة وألطف سياسة مع الأقربين والأبعدين ، ولذلك كان جواب أهل حمص أن قالوا : « ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم ودخلوا فى الإسلام » .

ثم صار أبو عبيدة بعد ذلك قائداً عاما للجيش الإسلامى فى سورية، وزحف مع خالد إلى دمشق ، وحاول خالد أن يفتحها عنوة ..

ولكن أهل دمشق طلبوا الصلح على يد أبى عبيدة الهادئ الوقور . وعقدت معاهدة صلح تم بها فتح دمشق على المقاسمة بالشطر فى الدينار والعقار ، وكان ذلك فى العام الرابع عشر من الهجرة .

* * *

وفى موقعة « اليرموك » كان أبو عبيدة يقود فرقة القلب فيها ، وكان يمشى بين الجنود موجها ومنبها ومشجعاً ومدافعا ، ويقول : « عباد الله .. انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، ولا تتركوا صفوفكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدءوهم بالقتال ، واشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق (الترس) والزموا الصمت ، إلا من ذكر الله عز وجل فى أنفسكم » .

وفى هذه الكلمات القصار نلمح من أبى عبيدة حسن الجمع بين إحكام العدة ، وإتقان المقاتلة ، وإيقاظ الإيمان . والاعتماد على الله ، وقد اشترك بعض نساء المسلمين فى هذه الغزوة، خرجن مع أزواجهن ، أو أبنائهن ، ووقفن فى الصفوف الخلفية ، ومعهن الحجارة والعمد ، والرماح والسيوف .

وتقدم أبو سفيان إليهن — وكانت امرأته هند فيهن — فقال : لا يرجع إليكن أحد من المسلمين إلا رميتنه بهذه الحجارة .

وقال لهن خالد : يانساء المسلمين .. أيما رجل أقبل إليكن منهزما فاقتلنه .

وكان النساء يومئذ يقلن لرجالهن : لستم بعولتنا إن لم تمنعونا (أى إن لم تدافعوا عنا) ! .. ويالها من وخزة تحريض مزلزلة مثيرة ! ..

وفى هذه الغزوة خرج معاذ وجعل يقول : يأهل القرآن ومتحفظى الكتاب ، وأنصارَ الهدى والحق . إن رحمة الله لاتنال ، وجنته لا تُدخل بالأمانى ، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدِّق ، ألم تسمعوا لقول الله .

« وَعَدَ اللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وليُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وليُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ »

(سورة النور آية ٥٥)

فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرارا من عدوكم وأنتم فى قبضته ، وليس لكم مُلتَحَدٌ من دونه ، ولا عزَّ بغيره »

ومما قاله عمرو بن العاص يوم ذاك : « يأيها المسلمون .. غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة ، فثبوا إليهم وثبةَ الأسد ، فوالذى يرضى الصدقَ ويثيب عليه ، ويمقت الكذبَ ، ويجزى بالاحسان إحسانا ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفْرًا كفرا ، ومِصراً مصرا ، فلا يهولنكم جموعهم ولاعددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدَّ تطايروا تطايرَ أولاد الحجل » « والحجل طير صغير » .

ومماقاله أبو هريرة . « سارعوا إلى الحور العين ، وجوار ربكم عز وجل فى جنات النعيم ، ما أنتم إلى ربكم فى موطن بأحبَّ إليه منكم فى هذا الموطن ، ألا وإن للصابرين فضلهم » .

وعاد أبو سفيان يقول فيما يقول : « يامعشر المسلمين .. أنتم العرب، وقد أصبحتم فى دار العجم ، منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين وإمداد المسلمين ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عددُه ، شديد عليكم حنقهُ ، وقد وترتموهم فى أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لاينجيكم من هؤلاء القوم ، ولا يبلغ بكم رضوانَ الله غداً إلا صدقُ اللقاء ، والصبر فى المواطن المكروهة ، ألا وإنها سنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم ، وبينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبرارى ، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ، ورجاء ماوعد الله ، فهو خيرُ معوَّل ، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ، ولتكن هى الحصون . . يامعشر أهل الإسلام ، حضر ماترون ، فهذا رسول الله ، والجنة أمامكم ، وهذا الشيطان والنار من خلفكم . . الله الله . . إنكم دارة الإسلام وأنصار الإسلام ، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يومٌ من أيامك ، اللهم انزل نصرَك على عبادك » ...

وفى أثناء القتال كان معاذ كلما سمع أصوات الروم قال : « اللهم زلزل أقدامَهم ، وأرعب قلوبهم ، وأنزل علينا السكينة ، وألزمنا كلمة التقوى ، وحبب إلينا اللقاء ، وأرضنا بالقضاء » .

ولقد تقدم رجل يوم ذاك إلى خالد وقال له مشفقاً : ما أكثرَ الرومَ وما أقل المسلمين ! . فقال خالد : ويلك ، أتخوفنى بالروم ؟ إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال ، والله لوددتُ أن الأشقر (فرسه) بَرَأ من توجعه ، وأنهم أضعفوا العدد .

وتقدم رجل عزم على الشهادة إلى أبى عبيدة وقال له : إنى قد تهيأت لأمرى ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . .

قال أبو عبيدة : نعم ، تقرئه عنى السلام ، وتقول له : يارسول الله ، إنا قد وجدنا ماوَعَـدَنا ربُّنا حقا ..

وتقدم هذا الرجل فقاتل حتى استشهد !

وبعد فتح أبي عبيدة لدمشق مرة ثانية أمره عمر بالتوجه شمالا لتتبع فلول الروم ، فاستولى على « حماة » و « شيزر » ، وعاد فافتتح « المعرة » ، وتوجه إلى « قنسرين » فصالحه أهلها ، وكذلك فتح « حلب » « وأنطاكية » وغيرها من البلدان[1] .

* * *

ويجب أن نلاحظ هنا أن الأخبار والروايات عن هذه الحروب والفتوح قد حدث فيها اضطراب واختلاف من ناحية التواريخ والأمكنة والمناسبات وبعض الأشخاص ، ويرجع ذلك إلى عدم العناية فى ذلك الوقت بالتسجيل المضبوط أو الوصف الدقيق ، أو التعيين الزمنى أو المكانى المحدد ، وإلى تعدد الوقائع وكثرة الفتوح ، وإلى أن البلد من البلاد كان يُفتح ، ثم يتركه الجيش لسبب من الأسباب ، ثم يعود إليه فيفتحه مرة أخرى ..

وهكذا تكررت الحوادث فاشتبه بعضها ببعض .. ومن الواجب على المؤرخين المتفرغين ، والباحثين المختصين بأمثال هذه الأمور أن يعكفوا عليها بحثاً وتنقيباً ، وتصحيحاً وسلسلة ، حتى لا يقع المطالعُ فى الحيرة والاضطراب حينما تتشابه أمامه الحوادث ، أو تتعارض ظاهرياً .

وليس من غرضنا فى هذا البحث — بطبيعة الحال — أن نفرغ

---

(١) روى أبو عساكر أن أبا عبيدة هو أول من سمى « أمير الأمراء » في الشـــام · وفى كتاب « الباعث الحثيث » لابن كثير عن أبى عبيدة أنه « أحد العشرة ، وأول من لقب بأمير الامراء بالشام ،وكانت ولايته بعد خالد ابن الوليد رضى الله عنهما » ص ٢٨٩ ·

لمثل هذه البحوث ، فإنما نكتب صورة لحياة أبى عبيدة تتجلى فيها طبائعه وأخلاقه وأعماله أكثر من أى شىء آخر .

* * *

ويحلو لنا قبل أن نترك هذا الجانب من أحاديث الميدان أن نمتع قارئنا بطرفة من طرف أبى عبيدة فى باب الديمقراطية الصحيحة ، والأخوة الإسلامية الصادقة ، لتكون زهرةً يفرح بها عشاقُ مكارم الأخلاق ، ويضيق بها أهلُ الجبروت والنفاق .

لما تم الصلح بين أمير جيوش المسلمين فى الشام أبى عبيدة وبين أحد قواد الروم ، جاءوه بطعام فاخر وقالوا له : هذا طعام الأمير .

فقال أبو عبيدة : وأطعمتم الجند مثل هذا الطعام ؟ ...

قالوا : لم يتيسر لنا ذلك ..

فقال أبو عبيدة : فلاحاجة لنا فيما يقتصر علينا وحدَنا من ألوان الطعام ، وبئس المرءُ أبوعبيدة إن صحب جنداً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه ، لا والله ، لانأكل إلا ما يأكلون ! ..

تقديره لجهود العاملين

روى أن رجالا من أهل البادية سألوا أبا عبيدة أن يرزقهم من مال الأمة الذى تحت يديه ، فقال : لا والله حتى أرزق أهلَ الحاضرة ، فمن أراد بحُبوحةَ الجنة فعليه بالجماعة .

وكأنه يريد بهذا أن يفرق بين العاملين والفارغين . . .

وبمثل هذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن الحسين يقول : « مر للجند بالفريضة ، وعليك بأهل الحاضرة ، وإياك والأعراب ، فإنهم لا يحضرون محاضر المسلمين ، ولا يشهدون مشاهدهم » .

ويعلق أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه الأموال (صفحة ٢٢٧) على هذين الخبرين بأنه ليس معنى هذا أنهم لم يكونوا يرون لأهل البادية حقا فى الفيء ، ولكنهم أرادوا أنه لا فريضة لهم راتبة تجرى عليهم من المال كأهل الحاضرة الذين يجامعون المسلمين على أمورهم ، ويعينونهم على إقامة الحدود وحضور الأعياد والجمع وتعليم الخير ، أما أهل البادية فلهم على الأمة المعونة فى أوقات الشدة ، كما إذا أصابتهم جائحة فى أرزاقهم أو دهمهم عدو .

نبل ومـــروءة

حب الرياسة طبيعة فى الإنسان ، وقد يطمع فى الرياسة من ليس أهلاً لها ، وكثيراً ما يتطاول الأقزام يريدون أن يكونوا عمالقة ، ومتى وصل الواحد منهم إلى منصب اغترَّ به واستمسك ، فلو فرض وعزل منه ، أو حيل بينه وبينه ، ملأ الدنيا صراخاً وعويلا ..

وإذا كان هذا شأنَ المُبطِل المدَّعِى ، فإنه لعزيز على نفس الكريم كلَّ العزة أن يهون ، وصعبٌ على القائد بجدارة كل الصعوبة أن يعزَل ، وشديد على الرفيع المجيد أن يهبط من عليائه على غير توقع أو انتظار .

وحين يقع ذلك لسبب من الأسباب ، أو حكمة من الحكم ، يحتاج الموقف العصيب إلى ألمعى أريب يعالجه بالنظر البعيد ، والرأى السديد ، والنفس السامية ، والهمة العالية .

هذا موقف خالد حينما عزله عمر رضى الله عنهما ..

لقد كان « خالد » سيفَ الله المسلول ، وبطل الإسلام المظفر ، وغضنفر الجهاد فى الجزيرة والشام ، وهو القائد الذى لم يغلب قط فى حياته ..

ولقد كان خالد زعيما للجيش المجاهد فى الشام على آخر عهد أبى بكر ، ثم لحق أبو بكر بربه والجيشُ الإسلامى بقيادة خالد يجاهد فى اليرموك أو نحوها . وتولى الخلافة عمر ، وجاء بنظامه الصارم فى حساب الولاة والقواد .

ولعله وجد فى نفسه شيئا أو أشياء على خالد ، بسبب قتل خالد امرأة فى فتح مكة مع نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن القتال .

وبسبب موقف خالد من بنى جذيمة ، حين قتل منهم مَنْ قتل ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهاه ألا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً ، أو سمع أذانا .

وبسبب موقف خالد من مالك بن نويرة حين قبض عليه خالد وقال له مالك : ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا . فلم يطعه خالد ، وقال : لا أقالنى الله إن أقلتك . وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه .

وبسبب أن الأشعث بن قيس أنشد خالدا قصيدة ، فأنعم عليه خالد بعشرة آلاف درهم ، فاعتبرها عمر خيانةً إن كان المال من مال المسلمين ، وإسرافاً إن كان المال من مال خالد .

لعل هذه أشياء مرت بذهن الخليفة عمر ... ثم كانت هناك عظمة خالد التى تبدت حتى افتتن بها الناس ، وصاروا يرددون : خالد لا يُقهر .. خالد لا تهزمه معركة ! ..

نخشى عمر أن يزيد الناس فى افتتانهم به ، فيكون من وراء ذلك مالا تحمد عقباه ، ودليل ذلك أن خالدا بعد أن عُزل قال لعمر : لم عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ ألعجز أم لخيانة ؟ .

فأجاب عمر : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضلَ عقلك على الناس ..

ويؤكد هذا أن عمر قال فيه من قبل : لو كان قرشيا لساقَ العربَ بعصاه[1] .

---

(١) وكتب عمر الى الأمصار فى هذا الشأن يقول : « انى لم أعزل خالدا عن صخطة ولا خيانة ، ولكن الناس افتتنوا به ، فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة • ولما التقى خالد بعمر قال له : ياخالد ، والله انك على لكريم ، وانك الى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء •

وعلى كل حال ، فقد عزل عمر خالداً ، وله فى ذلك اجتهاده وحكمته وإخلاصه ، ولا ينال من عبقرية خالد ولا من عظمته أن يعزل ، وإن يكن شديدا على النفس كلَّ الشدة أن تنزل بعد ارتفاع ، وأن يرأسها من كان له بالأمس مرءوسا .

بينما خالد يقود المعركة ويتصرف فيها ، وأبو عبيدة يسمع منه ويطيع ، جاء كتاب الخليفة الجديد عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة يأمره أن يتسلم قيادة الجيش من خالد ، وفيه يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح ، سلام عليك . . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وليتك أمور المؤمنين ، فلا تستحى فإن الله لا يستحيي من الحق ، وإنى أوصيك بتقوى الله العظيم ، الذى لا يفنى ويفنى سواه ، الذى استخرجك من الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، وقد وليتك على جند خالد ، فاقبض الجيشَ منه ، ولا تنفذ المسلمين إلى الهلاك رجاءَ غنيمة ، ولا تبعث سريةً إلى جمع كثير ، ولا تقل : إنى أرجو لكم النصر ، وإياكم والتغرير وإلقاء المسلمين فى الهلكة ، وأغمض عن الدنيا عينك » .

وفى رواية أخرى أنه كتب يقول :

« أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه ، الذى هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لا تُقدم المسلمين إلى هلكة رجاءَ غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم (تختبره) وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة ، وقد أبلاك الله بى ، وأبلانى بك ، فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكتْ من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم » .

وجاء مع هذا الكتاب كتاب آخر من الخليفة لخالد ، بأن يسمع من أبى عبيدة ويطيع .

إنه لموقفٌ عصيب . الحرب دائرة ، والنضال محتدم ، والمسلمون مع أعدائهم فى ساعة فاصلة ، وموتُ الخليفة السابق يحدث رجة ، وخلافة الخليفة الجديد تولد أطماعا وتخيب آمالا ، وعزلُ القائد المتصرف يغير الوضع ، ويؤثر فى سير القتال أبلغَ التأثير ، وتنصيبُ قائد جديد يتبعه ما يتبعه من إقبال وإدبار ، وتقديم وتأخير ، فماذا يكون العلاج ؟ . .

لو كان أبو عبيدة رجلا صغيرَ النفس ، أو لئيم الطبع ، أو من رعاع الناس . أو من ضعاف الإيمان ، لانتهز الفرصة وعزل خالدا ، ونصب نفسه أميرا ، ليكون الفتح باسمه ، ولينسب الفخارَ إليه ، وليدير المعركة حسب رأيه ، ولكن الذى كان هو أن أبا عبيدة كتم الخطاب حتى تمت المعركة ، وكمل النصرُ للمسلمين ، وهدأت الأمور ، ثم أفضى بحقيقة الأمر إلى خالد . فكان ذلك من أبى عبيدة نبلا ومروءة .

وزاد أبو عبيدة فى مروءته حين صارح خالدا بأن هذا التغيير يتناول الشكل ولا يتناول الجوهر ، وأنه لن يقضى أمراً من الأمور ذوات البال دون أن يرجع إلى رأيه ومشورته ، وبذلك هوّن وقع العزل فى نفس خالد ، وأخفى أثرَ التولية فى نفسه ، وذلك أسلوب النبلاء .

***

وقبل أن نترك هذا الموطن نذكر أن الإمام ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » قد علل إيثارَ أبى بكر لخالد فى الولاية ، وإيثار عمر لأبى عبيدة فيها تعليلا لطيفاً ، قال :

« . . . لأن المتولىَ الكبير إذا كان خُلقه يميل إلى اللين ، فينبغى أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة ، وإذا كان خُلقه يميل إلى الشدة ، فينبغى أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين ، ليعتدل الأمر .

ولهذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يؤثر استنابة خالد ، وكان

عمر بن الخطاب رضى الله عنه يؤثر عزل خالد واستنابة أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، لأن خالدا كان شديداً كعمر بن الخطاب ، وأبا عبيدة كان ليناً كأبى بكر ، وكان الأصلح لكل منهما أن يولىَ من ولاه ليكون أمره معتدلا ، وبذلك يكون من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى هو معتدل ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : (أنا نبى الرحمة ، أنا نبى الملحمة[1]) وقال : (أنا الضحوك القتال) وأمته وسط . قال الله تعالى فيهم : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

(سورة الفتح — ٢٩)

وقال تعالى : (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)[2] .

(سورة المائدة — ٥٤)

---

(١) الملحمة : الموقعة العظيمة القتل .

(٢) كتاب السياسة الشرعية ص ١٦ و ١٧ .

نفوس الكبار تتبادل الاحترام

سبق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى أبى عبيدة رضوان الله عليه : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ويروى كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم طعن فى خاصرة أبى عبيدة وقال : « إن ههنا خُوَيصِرة مؤمنة » .

ويروى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قالها لى أحب إلىَّ من حمر النعم » .

قالوا : وما هن يا خليفة رسول الله ؟ .

قال : « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو عبيدة فتطلع إليه الرسول ببصره ، ثم أقبل علينا فقال : « إن ههنا لكتفين مؤمنتين » وخرج علينا الرسول ونحن نتحدث فسكتنا ، فظن أننا كنا فى شىء كرهنا أن يسمعه ، فسكت ساعة لا يتكلم ثم قال : « ما من أصحابى إلا كنت قائلا فيه لا بُدّ إلا أبا عبيدة » ! .

وقدم علينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ، ابعث لنا من يأخذ لك الحقّ ويعطيناه .

فقال « والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوىّ الأمين » .

قال أبو بكر : فما تعرضتُ للإمارة غير هذه المرة ، فرفعت رأسى لأريه نفسى ، فقال : قم يا أبا عبيدة .

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال يوما لجلسائه : « تمنوا » فتمنوا ، فقال عمر : لكنى أتمنى بيتاً ممتلئا رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح .

فقال له رجل : ما أَلَوْتَ الإسلام(أى ما نقصته حقه) .

فقال عمر : ذاك الذى أردت ! .

وسئلت عائشة رضى الله عنها : من كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم أبو عبيدة بن الجراح .

وقال عبد الله بن عمر : ثلاثة من قريش ، أصبح الناس وجوها ، وأحسنها أحلاماً (عقولا) وأثبتها جنانا (قلوبا) إن حدّثوك لم يَكذبوك ، وإن حدثتهم لم يكذّبوك : أبو بكر الصديق ، وعثمان ابن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ! .

هذه شهادات لها أمثالها تشيد بفضل أبى عبيدة ، وترفع من قدره . وليس ذلك غريبا ، فالدر يجد من يقدّره ، ولكن الذى يحسن بنا أن نلاحظه هو تبادل الاحترام والإكبار بين هؤلاء الكبار ، فالأقران فى العادة يتنافسون ، والأمثال يتزاحمون ، والنظراء يتباغضون ويتحاسدون ، ولكن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قد تربوا فى مدرسته الإسلامية المصلحة ، فعرفوا أن أهل الفضل هم الذين يعرفون الفضل لأهله ، ولذلك رأينا أولئك الأئمة الأعلام يتبادلون المحبة والاحترام .

وهذه أخرى

نضيف إلى ما سبق من شهادات ما جاء فى صدد الرسالة المنسوبة إلى سيدنا أبى بكر ، والتى ذكر كثيرٌ من المؤرخين والأدباء أن أبا بكر أرسلها إلى على بشأن البيعة عقب أن تولى أبو بكر الخلافة .

وقد اختلف الناس قديماً وحديثاً فى أمر هذه الرسالة ، فمنهم من أكّد نسبتها إلى أبى بكر ، وأفرد لها المؤلفات ، ومنهم من زعم أن فضلاء الشيعة وضعوها ، ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها ، حتى يقول شهاب الدين النويرى فى « نهاية الأرب » :

« وهذه الرسالة قد اعتنى الناس بها ، وأوردوها فى المجاميع ، ومنهم من أفردها فى جزء ، وقطع بأنها من كلامهم رضى الله عنهم ، ومنهم من أنكرها ونفاها عنهم ، وقال : إنها موضوعة ، واختلف القائلون بوضعها ، فمنهم من زعم أن فضلاء الشيعة وضعوها . وأرادوا بذلك الاستنادَ إلى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إنما بايع أبا بكر الصديق بسبب ما تضمنته .

وهذا الاستناد ضعيف وحجة واهية والصحيح أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بايع بيعة رضا ، باطنه فيها كظاهره ، والدليل على ذلك أنه وطىء من السبى الذى سبى فى خلافة أبى بكر ، واستولد منه محمد ابن الحنفية ، ولاجواب لهم عن هذا ، ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها ، والله أعلم[1] » .

ولتحقيق هذا الموضوع مكان آخر ، وليس ذلك من مهمتنا الآن ،

---

(١) كتاب نهاية الأدب ج ٧ ص ٢١٣ .

وإنما يهمنا الجزء الخاص بأبى عبيدة فى صدر الرسالة ، وهذا الجزء يبين عن مكانة أبى عبيدة أفضل إبانة ، حتى لو لم تصح نسبة الرسالة كلها إلى أبى بكر ، فالرسالة قد وُضعت بلاشك منذ قرون ، إذا سلمنا بوضعها ؛ وكاتبها — إن لم يكن قائلها أبا بكر — قد وصف أبا عبيدة فأجاد الوصف ، وأشاد به فأحسن الإشادة .

تقول الرسالة إن أبا بكر أرسل أبا عبيدة إلى على رضى الله عنه ، حينما تأخر فى مبايعة أبى بكر ، ليحادثه فى هذا الأمر ، وقال أبو بكر لأبى عبيدة أولَ ما قال :

« يا أبا عبيدة .. ما أيمن ناصيتك ، وأبين الخيرَ بين عينيك ، وطالما أعزّ الله بك الإسلام ، وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحل المغبوط ، ولقد قال فيك فى يوم مشهود : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ولم تزل للدين ملتجا ، وللمؤمنين مرتجى ، ولأهلك ركنا ، ولإخوانك ردءا ..

قد أردتك لأمر له خطرٌ مخوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لن يندمل جرحُه بيسارك[1] ورفقك ، ولم تُجَبْ[2] حيَّتُه برُقْيتك فقد وقع اليأس ، وأعضل البأس ، واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمرُّ منه وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامهُ بك ، ونظامه على يديك فتأتَّ له يا أبا عبيدة ، وتلطف فيه ، وانصح لله عز وجل ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذه العصابة ، غير آلٍ جهداً ، ولا قالٍ حمداً ، والله كالئُك وناصرك ، وهاديك ومبصِّرك إن شاء الله » .

---

(١) فى رواية بمسبارك ، والمسبار : فتيل يدخل فى الجرح ليعرف كم عمقه ، يقال : سبرت الجرح اذا اختبرته بالمسبارة ، وقوله : بيسارك هنا معناه بيسرك ولينك ..

(٢) تقطع .

وأملى أبو بكر على أبي عبيدة ما أملى ، ثم مشى أبو عبيدة السفير الحكيم المخلص بما حمل . وهنا يقول أبو عبيدة ما يكشف عن نفسه المشفقة ، وروحه المؤمنة ، الحريصة على الوحدة والالتئام : « فمشيتُ متزملا[1] كأنما أخطو على أمِّ رأسى ، فَـرَقاً من الفُـرقة ، وشفقا على الأمة ، حتى وصلت إلى على رضى الله عنه فى خَـلاء ، فأبثثته[2] بثِّـى كله ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به » .

وهذا القول يدل على حكمة أبي عبيدة ، وتقديره للأمور ، ويصور نفسه الطاهرة ، ومقصده النبيل .

---

(١) المتزمل : المتلفف ، يريد أنه خرج مستخفيا .
(٢) يقال : أبثثته السر ، اذا أطلعته عليه .

حيطة أبي عبيدة

كتب أبو عبيدة — وهو أمير على الشام — إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكر له أن نفراً من المسلمين عنده أصابوا الشرابَ وهو الخمر، ومنهم أبو جندل بن سهل، ويقول لعمر: إننا سألناهم فقالوا: خُيِّرنا فاخترنا، يقصدون قول الله تعالى فى سورة المائدة بشأن الخمر: «فهل أنتم منتهون»؟.. فإنه — كما زعموا — لم يعزم، ولم يوجب الانتهاء.

فجمع عمر الناس واستشارهم، فأجمعوا على خلافهم، وقالوا إن المعنى: «فهل أنتم منتهون» اى انتهوا، وأجمعوا على جلدهم ثمانين ثمانين، وأن من تأوَّلَ هذا التأويل وأصر عليه يُقتَل.

فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعهم فسلهم عن الخمر، فإن قالوا: هى حلال، فاقتلهم، وإن قالوا هى حرام فاجلدهم.

فاعترف القوم حين سألهم أبو عبيدة بتحريمها، فجُلِدوا الحدَّ، وندموا على ما كان منهم من اللجاجة فيما تأولوه، حتى وسوس أبو جندل فى نفسه — لأنه كبر عليه إثمه — فكتب أبو عبيدة فى ذلك إلى عمر، وسأله أن يكتب إلى أبي جندل يذكِّره، فكتب إليه عمر فى ذلك يقول: «من عمر إلى أبي جندل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

فتب، وارفع رأسك، وابرز ولا تقنط، فإن الله تعالى يقول:

«قُلْ يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ، إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ».

وكتب عمر إلى الناس يقول: «إن عليكم أنفسكم، ومن غيَّر فغيِّروا عليه، ولا تعيِّروا أحداً فيفشو البلاء»..!

* * *

لقد أحسن عمر التصرف فى هذا الموقف من غير شك ، لأن الآية الكريمة تقول : « إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » ، والرجس هو القذر والنتن ، وعمل الشيطان ضلال بلا جدال ، ثم تقول بعد ذلك : « فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، فأمرت بالابتعاد ، وعلقت الفلاحَ على ذلك الابتعاد .

ثم يقول القرآن بعد ذلك : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » ، فأبان أن الشيطان يريد من إتيان هذه الأمور إيقاعَ العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله والصلاة ، فكيف يكون الانتهاء بعد هذا اختيارياً أو مندوبا ؟ .

كيف والقرآن يقول عقيب ذلك : « وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ » . . . فهل بعد قوله : « وَٱحْذَرُوا » وقوله : « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ » يكون هناك مجال لذلك التأويل المحال ؟ .

وأحسن عمر لأنه كتب إلى أبى جندل يذكِّره برحمة الله ، ويفتح أمامه أبوابَ الأمل والرجاء ، وحسن الظن بالله ، لأنه « لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

وأحسن عمر حين أمر الناس بالانصراف إلى إصلاح نفوسهم ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وحين نهاهم عن التعيير بالمعصية ، فإن ذلك من أوسع أبواب البلاء ! .

ولكننا بعد ملاحظتنا لإحسان عمر فى هذا كله يجب علينا أيضاً أن

نلاحظ ما أحسن فيه أبو عبيدة ، فأبو عبيدة هنا والٍ وحاكم وأمير ، وقد أتِىَ إليه بقوم ارتكبوا كبيرة من الكبائر ، وهى شرب الخمر ، وهذه الكبيرة تحتاج إلى حد مؤدب ومهذب ، فلما همَّ به تأول مرتكبو الجريمة ، فماذا كان من أبى عبيدة ؟ . .

توقف وتلبث ، شأنَ الحاكم العادل الذى يريد أن يسير فى أحكامه على بصيرة ويقين ، ويتذكر أن الحدود تُدْرَأ بالشبهات — إن صحت الشبهة هنا — وكتب إلى الخليفة يستفتيه فى الأمر ، فهو صاحب الأمر الأول فى الأمة ، ومن حوله أهل المشورة والفتيا .

وهذا من غير شك احتياط محمود من أبى عبيدة ، لا يعيبه إلا عَجُول مسرف ، أو جاهل متعسف ، وهو أيضاً تقدير جميل من أبى عبيدة لمكانة عمر الخليفة ، وهو ثالثا احترام من أبى عبيدة لحرية الرأى والتفكير ، فالظاهر أن أبا عبيدة لم يكن على رأى الذين شربوا وتأولوا ، وإلا لقبل منهم وأطلق سراحهم ، ومع هذا لم يأخذ برأيه متسرعاً حينما وجد رأياً لغيره . . ومن ذلك الغير ؟ . . إنه متَّهم يجب أن يظل بمنجاة من العقاب حتى ينهض عليه الدليل بدون التباس .

وقد رد عمر ، وأزال الشبهة ، فلم يبق إلا إقامة الحد الذى فرضه الله ، وقد كان ، وانقطع التأويل والجدال .

وأحسن أبو عبيدة غاية الإحسان حينما ثارت فى صدره تلك العاطفة النبيلة بشأن أبى جندل . . لقد آلمه أن يحزن أبو جندل ذلك الحزن ، وأن تثور فى أفقه غيومُ اليأس والقنوط ، وعز على أبى عبيدة أن ينأى مُسْلِم عن حمى الرحمة والاهتداء ، فإذا به يحرص على هدايته وراحته ، وإذا به يكتب إلى الخليفة يرجوه أن يعجل بنصيحة لأبى جندل تعيده إلى صوابه ، وتضىء أمامه الطريق ، وقد كان .

وهذه غاية ما يلتمسه منصف من راع يحرص على خير رعيته ، ويحب النعمة لإخوته فى الإسلام .

ولم لا نقول : « وأحسن أبو جندل أيضاً » ؟ . . وإن يكن قد أسرف على نفسه قليلا . . لقد أخطأ متأولا فشرب الخمر ، ثم أقيم عليه الحد فطهَّره ، ولكن الذنب تعاظمه وأحاط به ، بعد أن سمع من حكم الإسلام وتفسير الآية ما سمع .

ولذلك استشعر المزيد من الخوف ، فتزلزل واضطرب ، واشتد به الحزن فلزم بيته ، وغالى حين وسوس ، واحتاج إلى من يذكره بعفو الله ورحمته ، وقد كان .

جاء كتاب عمر ، فقرأه أبو عبيدة على أبي جندل ، فتطلق وأسفر وجهه ، وكأنما نشط من عقال ، فبرز من بيته ، وعاد إلى سابق عهده ، واستقام على الطريق ، وكتب أبو عبيدة صوراً من كتاب الخليفة إلى الآخرين شركاء أبي جندل ، فبرزوا مثله .

سلام على عمر . . وسلام على أبي عبيدة . . وسلام أيضاً على أبي جندل . . وسلام على من اتبع الهدى .

أبو عبيدة في كلامه

الكلام سواء أكان حديثا أم كتابة صورة من نفس صاحبه ، ولقد تقدم من أنباء أبى عبيدة مافيه مقنع وبرهان أى برهان على أنه كان بطلا عظيما ، ومؤمناً صادقا ، ومتمسكا بمكارم الأخلاق .

وقد يكون من الخير أن نرى أبا عبيدة من خلال كلامه ، لنشهد من هذا الكلام صورةً أخرى لنفسه الصافية ، وإيمانه الصادق ، وبلائه المتين . . وسنذكر كل كلمة أو رسالة كتبها أبو عبيدة مع مناسبتها فى إيجاز ، فيكون ذلك استكمالاً للترجمة . ومتابعة لصحبة الرجل العظيم ، وتأكيداً لما سبق من تحليل أو تصوير :

في قتال الروم

سار أبو عبيدة بجيشه إلى الشام ، فلما قرب من « الجابية » جاءه مَنْ أنبأه أن « هرقل » ملك الروم موجود فى « أنطاكية » ، وأنه قد جمع لحرب المسلمين جموعاً هائلة لم يجمعها أحد من آبائه قبله لأحد من الأمم السابقة ، فرأى أبو عبيدة — مع أنه قائد وأمير للجيش وقريب من الميدان — أن يكتب إلى أمير المؤمنين أبى بكر يستشيره ، ويطلب منه رأيه ، ولعل ذلك لم يكن عن عجز من أبى عبيدة ، أو قصور عن التدبير ، وإنما هو يريد أن يحفظ لأبى بكر حقه ، وأن يستعين برأيه ، وما ندم من استشار ، فأرسل أبو عبيدة إلى أبى بكر الرسالة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . لعبد الله أبى بكر ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أبى عبيدة بن الجراح .. سلام عليك .. فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . . فإنا نسأل الله أن يعز الإسلامَ وأهلَه عزًّا متينا ، وأن يفتح لهم فتحاً يسيرا . . فإنه بلغنى أن « هرقل » ملك الروم ، نزل قرية من قرى الشام تدعى « أنطاكية » ، وأنه بعث إلى أهل مملكته فحشرهم إليه ، وأنهم نفروا إليه على الصَّعْب والذلول[1] ، وقد رأيت أن أعلمك ذلك ، فترى فيه رأيك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

* * *

الرسالة كما ترى وجيزة ، لا تتجاوز السطورَ المعدودة ، وهى واضحة لا تكلف فيها ولا تعمل ، ولا صنعة بها ولا إغراب ، وكذلك شأن

---

(١) فى أساس البلاغة للزمخشرى : « ومن المجاز : ركبوا كل صعب وذلول فى أمرهم اذا يذلوا فيه الطاقة » .

أبي عبيدة فيما نقرأ من كتبه ورسائله ، وهى تهدف إلى المقصود من أقرب طريق ، فتخبر بالخبر ، دون خلل أو تطويل ، ثم تطلب الرأى ! .

وفى الرسالة أدب نفس . . فأبو عبيدة يقدّم ذكرَ أبى بكر فى الرسالة على ذكر نفسه ، مع جريان العادة بغير هذا عند الكثيرين يومئذ ، وهذا توقير منه لأبى بكر ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يتملق أبا بكر ، ولا يسبغ عليه حللَ المديح والثناء فضفاضة ، وإن استحقها أبو بكر بلا جدال ، ويكتفى أبو عبيدة فى وصف أبى بكر بقوله : « عبد الله » وقوله : « خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

* * *

وقد بلغت الرسالة أبا بكر ، وأجاب عليها بوضوح وجلاء ونصيحة بالغة ، قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . أما بعد . . . فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر (هرقل) ملك الروم ، فأما منزله بأنطاكية فهزيمةٌ له ولأصحابه ، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين ، وأما ما ذكرتَ من حشره لكم أهلَ مملكته ، وجمعه لكم الجموع ، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم ، وما كان لقوم ليدعوا سلطانَهم ، أو يخرجوا من ملكهم بغير قتال « وقد علمت — والحمد لله — أن قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموتَ حبّ عدوهم الحياة ، ويجزون من الله فى قتالهم الأجر العظيم ، ويحبون الجهاد فى سبيل الله أشدّ من حبهم أبكارَ نسائهم وعقائل أموالهم (١) ، الرجل منهم عند الفتح خيرٌ من ألف رجل من المشركين ، فالقهم بجندى ، ولا تستوحش لمن غاب عنك من

---

(١) أى خيارها ، المفرد عقيلة ، وهى من كل شىء أكرمه ، ويقال فلانة عقيلة قومها ، أى سيدتهم وذات المكانة فيهم ، ويقال للدرة : عقيلة البحر ، قال ابن الرقيات :

درة من عقائل البحــــر بكر لم تخنها مثـــاقب اللآل

ويقال أيضا للرجل هو عقيلة قومه ، أى سيدهم والشريف بينهم

المسلمين ، فإن الله معك ، وأنا مع ذلك مُمِدُّك بالرجال حتى تكتفى ولا تريد أن تزداد إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » .

* * *

وتجمع أهل مدائن الشام بعد أن تراسلوا ، وكذلك أرسلوا إلى كل من كان على دينهم من العرب ليقاتلوا معهم فأجابوا ، وخرج الجميع إلى قتال المسلمين بعد ان قال لهم ملك الروم : إن أهل مدينة واحدة من مدائنكم أكثر مما جاءكم من العرب أضعافا مضاعفة .

فكتب أبو عبيدة رسالة ثانية إلى أبى بكر يقول فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . . فالحمد لله الذى أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان ، وهدانا لما اختلف المختلفون فيه بإذنه ، إنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وإن عيونى من أنباط [1] أهل الشام أخبرونى أن أوائل أمداد ملك الروم قد وقعوا إليه ، وأن أهل مداين الشام بعثوا رسلهم إليه يستمدونه ، وأنه كتب إليهم : (إن أهل مدينة من مدائنكم أكثر ممن قدم عليكم من العرب ، فانهضوا إليهم فقاتلوهم ، فإن مددى يأتيكم من ورائكم) ، فهذا ما بلغنا عنهم ، وأنفس المسلمين لينة بقتالهم [2] وقد أخبرونا أنهم تهيئوا لقتالنا ، فأنزل الله على المؤمنين نصره ، وعلى المشركين رجزَه ، إنه بما يعملون عليم ، والسلام » .

* * *

وقد رد عليه أبو بكر بخطاب يستنهضه فيه إلى حصار الأعداء ، وبث الخيل فى القرى والسواد [3] ، وقطع الميرة [4] والماء عن أهل المدائن .

---

(١) فى القاموس أن النبط جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين كالنبيط والأنباط .

(٢) أى يحب المسلمون قتالهم .

(٣) سواد البلدة قراها ، والسواد أيضا رستاق العراق ، وموضع قرب البلقاء .

(٤) الميرة جلب الطعام ، والميار جالب الميرة .

وروى كذلك أن أبا عبيدة كتب إليه يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد .. فإن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب ، قد اجتمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر ، وإنجاز موعود الرب وعادته الحسنى ، أحببت إعلامك ذلك لترى فيه رأيك إن شاء الله ، والسلام » .

وعظ للخليفة عمر

لقد عزل عمر — بمجرد توليه الخلافة — خالداً ، وولى أبا عبيدة ، وكان المنتظر فى شرعة العامة من الناس أن يسارع ابو عبيدة فيكتب إلى عمر شاكراً حامداً ، وأن يطيل فيه الثناء ، وأن يُظهر بما استطاع من وسائل أن هذه التولية مِنَّةٌ من عمر عليه ، ولكن ما حدث كان غير هذا ، وكان الواجب كل الوجوب فى شرعة المؤمنين أن يحدث غير هذا ، إذ ليست هنا منة أو صنيعة ، وليس هنا استثناء أو محاباة ، وليست هذه التولية غُنْماً ، وإنما هى غُرم ، وليست شهوات ، ولكنها تبعات .

ولذلك نرى أبا عبيدة يكتب عقيب تولى عمر للخلافة رسالةً يشترك معه فيها معاذ بن جبل رضى الله عنه — وكان مع أبى عبيدة فى الشام — ينصحان فيها عمر الخليفة الجديد بأسلوب واضح ، وتحذير جلى[1] ، فيقولان له :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من أبى عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، إلى عمر بن الخطاب ، سلام عليك . . فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد .. فإنا عهدناك وأمرُ نفسك لك مهم . وإنك يا عمر أصبحت وقد وليت أمرَ أمة محمد : أحمرها وأسودها ، يقعد بين يديك الصديقُ والعدو ، والشريف والوضيع ، والشديد والضعيف ، ولكل عليك حقٌ وحصة من العدل ، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وإنا نذكِّرك يوما تُبلى فيه السرائر ، وتَجب[2] فيه القلوب ،

---

(١) وبرغم هذا كان أبو عبيدة يجل عمر ، جاء فى العقد الفريد : « ومن حديث وكيع عن سفيان قال : قبل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب » ج ٢ ص ٦ .

(٢) تضطرب .

وتُكشف فيه العورات، وتظهر فيه المخبآت، وتعنو[1] فيه الوجوه لملك قاهر، قهرهم بجبروته، والناس له داخرون، ينتظرون قضاءه، ويخافون عقابه، ويرجون رحمته.

وإنه بلغنا أنه يكون فى هذه الأمة رجال يكونون إخوانَ العلانية أعداءَ السريرة، وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابَنا من قلبك سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا، فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

* * *

فماذا كان جواب عمر ؟.

إن هذا كتاب من جنديين من جنود الإسلام، وهما من الرعية مهما علا قدرهما. وقد وجهاه إلى الرجل الأول فى الأمة الإسلامية، وهو خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمير المؤمنين، وعمر الفاروق، الذى أعز الله به الإسلام، والذى شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الحق معه، وبأن الشيطان يفر منه، وبأنه ملهَم فى أمته، فهل تكبّر أو غضب، حينما جاءه الكتابُ من أبى عبيدة ومعاذ ؟.

كلا لم يفعل، وغير عمر هو الذى يتكبر أو يأنف من النصيحة تأتيه من أى إنسان، فكيف بها من علمين من أعلام الإسلام ؟.

لقد كان جواب عمر أن كتب إليهما يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل. سلام عليكما. فإنى أحمد إليكما الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد، فإنى أوصيكما بتقوى الله، فإنه رضا ربكما، وحظ

---

(1) تعنو: تذل وتخضع، وفى التنزيل المجيد: «وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما».

أنفسكما ، وغنيمة الأكياس[1] لأنفسهم عند تفريط العجزة .

وقد بلغنى كتابكما تذكران أنكما عهدتمانى وأمر نفسى لى مهم ، فما يدريكما ؟ وهذه تزكية منكما لى ، وتذكران أنى وليت أمر هذه الأمة ، يقعد بين يدى الصديق والعدو . والشريف والوضيع ، والقوى والضعيف ، ولكل حصته من العدل ، وكتبتما أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وإنه لاحول ولاقوة لعمر عند ذلك إلا بالله ، وكتبتما تخوفانى يوما هو آت ، وذلك باختلاف الليل والنهار، فإنهما يُبْليان كل جديد ، ويقربّان كلّ بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يأتيا بيوم القيامة ، يوم تبلى فيه السرائر ، وتكشف العورات ، وتعنو فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته ، فالناس له داخرون[2] يخافون عقابه ، وينتظرون قضاءه ، ويرجون رحمته .

وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون فى هذه الأمة رجال ، يكونون إخوان العلانية ، أعداء السريرة ، فليس هذا بزمان ذلك ، إنما ذلك فى آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرهبة ، فتكون رغبة بعض الناس إلى بعض إصلاح دينهم ورهبة بعض الناس إصلاح دنياهم ، وما سلطان الدنيا وإمارتها؟ فإن كل ما تريان يصير إلى زوال ، وإنما نحن إخوان ، فأينا أمّ أخاه أو كان أميراً عليه لم يضره ذلك فى دينه ولادنياه ، بل لعل الوالى يكون أقربهما إلى الفتنة ، وأوقعهما بالخطيئة ، لأنه بعَرَض هلكة ، إلا من عصم الله عز وجل ، وقليل ما هم ، وكتبتما تعوذانى بالله أن أنزل كتابكما منى سوى المنزل الذى نزل من قلوبكما ، وإنما كتبتما نصيحةً لى ، وقد صدقتما ، فتعهدانى منكما بكتاب ، ولا غنى بى عنكما » .

---

(١) الكيس العقل وخلاف الحمق ، والرجل أكيس ، والجمع أكياس وكيسى ، قال الشاعر

فكن أكيس الكيسى أذا كنت فيهم
وان كنت فى الحمقى فكن مثل أحمقا

(٢) دخر دخورا : صغر وذل ، وفى القرآن المجيد : « ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

فى موقعة «فحل»

وتجمع الروم فى بلدة «فحل» ، وتعاهدوا على طرد العرب المسلمين مهما كلفهم ذلك من تضحيات ، وكتب الروم إلى المسلمين يطلبون منهم الرحيلَ عن بلادهم المثمرة ، إلى صحرائهم المقفرة ، فكتب أبو عبيدة فى ذلك الأمر كتاباً إلى الخليفة عمر .

وفى هذا الكتاب ترى أبا عبيدة صريحا واضحاً كعادته ، ولكنه قوى صارم كذلك . فهو يستعرض دعاوى القوم ، ويرد عليها ، وهو يبدى رأيه فى الموقف واضحاً جليا ، ثم يرجو أن يؤيده الخليفةُ أو يوافقه عليه ، يقول أبو عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة ابن الجراح . سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . فإن الروم قد أقبلت ، فنزلت «فحل» طائفةٌ منهم مع أهلها ، وقد سارع إليهم أهل البلد ، ومن كان على دينهم من العرب ، وقد أرسلوا إلىَّ أن (اخرج من بلادنا التى تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب ، وإنكم لستم لها بأهل ، والحقوا ببلادكم ، بلاد الشقاء والبؤس ، فإن أنتم لم تفعلوا سرنا إليكم بما لا قبل لكم به ، ثم أعطينا الله عهدا ألا ننصرف عنكم ، ومنكم عين تطرف) . .

فأرسلت إليهم : أما قولكم : « اخرجوا من بلادنا فلستم لها بأهل » . . فلعمرى ما كنا لنخرج منها وقد دخلناها وورَّثناها الله منكم ، ونزعناها من أيديكم ، وإنما البلاد بلاد الله ، والعباد عباده ، وهو ملك الملوك ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

وأما ماذكرتم من بلادنا ، وزعمتم أنها بلاد البؤس والشقاء ، فقد

صدقتم وقد أبدلنا الله بها بلاد كم بلاد العيش الرفيغ[1] ، والسعر الرخيص ، والفواكه الكثيرة ، فلا تحسبونا بتاركيها ، ولا منصرفين عنها ، ولكن أقيموا لنا ، فوالله لا نجشمكم إتياننا ، ولنأتينكم إن أقمتم لنا .

فكتبتُ إليك حين نهضت إليهم ، متوكلا على الله ، راضيا بقضاء الله ، واثقا بنصر الله ، كفانا الله وإياك والمؤمنين مكيدةَ كلِّ كائد وحسد كل حاسد ، ونصر الله أهلَ دينه نصراً عزيزاً ، وفتح لهم فتحاً يسيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً » .

وقد رد عليه عمر ، يصفه بالسداد والرشاد ، ويوصيه بالثبات والصبر ، ويبشره بالفتح والنصر .

* * *

ونهض المسلمون لقتال الروم ، فهزموهم شر هزيمة ، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة ، وتغلبوا على سواد « الأردن » ، وعلى أرضها ، وكتب أبو عبيدة إلى عمر كتاباً يَفيض تحدثاً بنعمة الله سبحانه ، واعترافا بفضله ، وإسنادا للفوز الى عنايته ورعايته ، ويخبر أبو عبيدة الخليفةَ بالانتصار ، فلا ينسب من ذلك شيئاً إلى نفسه أو الى جيشه ، ولكن إلى الله وحده .

ثم يشير إلى الشهداء الذين « أهدى » الله إليهم نعمةَ الشهادة . . ! وما أجمل التعبير هنا عن الشهادة بكلمتى « أهدى » و « نعمة » . . ! ثم يصف اندحارَ المشركين وانكسارهم ، ويحسن الاقتباس من القرآن الكريم فى هذا الموطن ، ويجرى فى الكتاب على مألوف عادته من السهولة ، والوضوح ، والسلاسة ، والاختصار ، فيقول فى الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . فالحمد لله الذى أنزل على المسلمين المؤمنين نصرَه ، وعلى الكافرين رجزه .

---

(١) الرفيغ : الواسع الطيب .

أخبر أميرَ المؤمنين — أصلحه الله — أنا التقينا نحن والروم ، وقد جمعوا لنا الجموعَ العظام ، فجاءونا من رءوس الجبال ، وأسياف[1] البحار ، وظنوا أنه لا غالبَ لهم من الناس ، فبرزوا ، وبَغوا علينا ، وتوكلنا على الله ، ورفعنا رغبتنا إليه ، وقلنا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجلنا ، وكان القتال بين الفريقين مليا[2] من النهار ، أهدى الله فيه نعمةَ الشهادة لرجال من المسلمين ، منهم عمرو بن سعيد ابن العاص .

وضرب الله وجوهَ المشركين ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم حتى اعتصموا بحصونهم ، فأصاب المسلمون عسكرهم ، وغلبوا على بلدهم وأنزلهم الله من صَيَاصِيهم[3] . وقذف فى قلوبهم الرعبَ ، فاحمد الله يا أميرَ المؤمنين أنت ومن قبلك من المسلمين على إعزاز دينه ، وإظهار الفلج[4] على المشركين ، وادعوا الله لنا بتمام النعمة ، والسلام عليك » .

* * *

ولما رأى الكافرون المهزومون من أهل « فحل » أن المسلمين قد غلبوا كذلك على أرض الأردن سألوهم الصلحَ ، فصالحهم المسلمون بلا خلاف ، وأما أهل الأردن وأهل القرى الأخرى فلم يستجب لهم المسلمون بمثل ما استجابوا لأهل « فحل » ، لأن هذه البلاد قد أخذها المسلمون عنوة بغير صلح ، ولذلك اختلف المسلمون فيما بينهم حول مصير هذه البلاد ، فقالت طائفة منهم : نقتسمهم ، وقالت طائفة أخرى : نتركهم ، وأراد أبو عبيدة — كعادته السمحة المحتاطة — أن يستشير عمر قبل الإقدام على تنفيذ أحد الرأيين ، فكتب إليه الكتابَ الوجيز التالى :

---

(١) أسياف : سواحل .
(٢) مليا : زمنا طويلا .
(٣) صياصيهم : حصونهم .
(٤) الفلج : الانتصار .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، اما بعد . . فإن الله ذا المنّ والفضل والنّعم العظام ، فتح على المسلمين من أرض الروم ، فرأت طائفة من المسلمين أن يُقرّوا أهلها ، على أن يؤدوا الجزية إليهم ، ويكونوا عمارَ الأرض ، ورأت طائفة منهم أن يقتسموهم ، فليكتب إلينا أمير المؤمنين برأيه فى ذلك ، أدام الله لك التوفيق فى جميع الأمور » .

فرد عليه عمر يهنئه بالنصر ، ويذكر الشهداء بالخير ، ويطلب إلى أبى عبيدة أن يقر أهل الأرض ، وأن يجعل الجزية عليهم ، ويقسمها بين المسلمين ، ويكون هؤلاء عمارَ الأرض ، فهم أعلم بها ، واقوى عليها من غيرهم . . .

فلما جاء أبا عبيدة هذا الرأى من عمر عمل به .

عهد أبي عبيدة لأهل بعلبك

بعد أن انتهى أبو عبيدة من أمر « فحل » وسواد الأردن والقرى المجاورة ، اتجه نحو « حمص » ، ومر بمدينة « بعلبك » ، فطلب أهلها منه الأمانَ والصلح ، فاستجاب لهم ، وكتب عهداً يُعتبر نموذجاً من نماذج العدالة الإسلامية ، والسماحة التي ظهر بها المسلمون في فتوحهم وحروبهم .

فهذا أبو عبيدة يمر ظافراً منتصراً ، وللظفر نشوةٌ ، وللانتصار سكرة ، وهذه « بعلبك » تطلب إليه الأمان والصلح ، وهو قادر على فتحها عنوةً والبطش بها ، ولكنه يستجيب لدعوة السلام ، وطلب الأمان ، ويكتب لأهل « بعلبك » عهداً قصيرَ السطور ، ولكنه جليل التأثير ، ففيه التعهد بإعطاء الحرية في العبادة والتنقل ، وفيه ترغيب في الإسلام ، فإن أسلم القوم فالإسلام يقطع ما قبله ، والمسلمون سواء ، وها هو ذا العهد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك ، رومها وفرسها وعربها ، على أنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، ودورهم ، داخلَ المدينة وخارجها ، وعلى أرجائهم ، وللروم أن يرعوا سَرْحَهم ، ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ، ساروا إلى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج ، شهد لله ، وكفى بالله شهيداً » .

مع أهل حمص

ودخل أبو عبيدة بلدة «حمص» ، وطلب أهلها كذلك الصلح ، فصالحهم المسلمون ، وكتبوا لهم كتابا كالكتاب السابق بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر يخبره بذلك ، ويهنئه بما ساق الله فى فتح حمص وصلحها من الخيرات والخراج ، وهو كدأبه سهل التعبير ، واضح التراكيب ، مكشوف القصد ، متحوّط من التهجم على شيء قبل الاستشارة فيه ، ناسبٌ الفضلَ فى القوة والغلبة إلى الله ، وفى ذلك الكتاب يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . فالحمد لله الذى أفاء علينا وعليك يا أمير المؤمنين أفضلَ كور فى الشام أهلا وقلاعا ، وأكثرهم عدداً وجمعاً وخراجا ، وأكتبهم للمشركين كتْباً[1] ، وأيسره على المسلمين فتحا ، أخبرك يا أمير المؤمنين — أصلحك الله — أنا قدمنا بلاد «حمص» ، وبها من المشركين عدد كثير ، والمسلمون يزفونهم[2] ببأس شديد ، فلما دخلنا بلادهم ألقى الله الرعبَ فى قلوبهم ، ووهَّن كيدهم ، وقلم أظفارهم ، وسألوا الصلح ، وأذعنوا بأداء الجزية ، فقبلنا ، وكففنا عنهم ، وفتحوا لنا الحصون ، واكتتبوا منا الأمان ، وقد وجهنا الخيول إلى الناحية التى فيها ملكهم وجنوده ، فنسأل الله ملك الملوك ، وناصر الجنود ، أن يعز المسلمين بنصره ، وأن يأخذ المشرك الخاطىء بذنبه ، والسلام عليك » .

---

(١) الكتب كشمس : الجمع ، أى أكثرهم جمعا .

(٢) يزفونهم : يطردونهم ويدفعونهم .

وقد سر عمر بهذا التوفيق ، ولكن يظهر أنه خشى من توسع المسلمين السريع فى الفتح ، وتعجّل أبى عبيدة فى بثّ الجنود فى الجهات المختلفة ، فكتب عمر ينصح أبا عبيدة بجمع الجيش والإقامة به مضموما حتى يمضى هذا الحَوْل ، ويكتب له بعد ذلك بما يرى . . .

وكان أبو عبيدة رضى الله عنه قد بعث ميسرة بن مسروق فى جماعة من الجند إلى ناحية « حلب » ، فلما جاءه خطاب الخليفة أسرع باستدعاء ميسرة ، إذ بعث إليه خطابا كأنه برقية من إيجازه وبلاغته ، وفيه يقول :

« أما بعد . . فإذا لقيك رسولى فأقبل معه ، ودع ما كنت وجهتك فيه ، حتى نرى من رأينا ، وننظر ما يأمر به خليفتنا ، والسلام عليك » .

فلم يتعصب أبو عبيدة هنا لرأيه ، ولم يقل : تصرُّف قد أبرمته فكيف أنقضه ؟ وأمر بدئ بتنفيذه فكيف أعطله ؟ . . بل سمع وأطاع لأنه لا ينظر إلى شخصه ، ولكنه ينظر إلى اجتماع الكلمة ، وطاعة الخليفة ، ومصلحة الدعوة . .

فأقبل ميسرة فى أصحابه حتى انتهى إلى أبى عبيدة فى حمص فنزل معه .

بين حمص ودمشق

يظهر أن الروم عند دمشق عادوا فتجمعوا مرة أخرى لحرب المسلمين ، وخرجوا على النظام الذى استقر منذ حين ، ويظهر أن أبا عبيدة رضى الله عنه كان بارعاً فى بثِّ العيون والأرصاد ، والتقاط الأنباء والأخبار فى مواقيتها ، فلما علم بما كان ، بعث ليلةَ غدا من حمص إلى دمشق سفيان بن عوف بن معقل رسولاً إلى عمر رضى الله عنه ، وكتب معه الكتاب التالى :

« أما بعد فإن عيونى قدمت علىَّ من أرض عدونا ، من القرية التى فيها ملك الروم ، فحدثونى بأن الروم قد توجهوا إلينا ، وجمعوا لنا من الجموع مالم يجمعوه لأمة قط كانت قبلنا ، وقد دعوتُ المسلمين وأخبرتهم الخبر واستشرتهم فى الرأى ، فأجمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك ، وقد بعثت إليك رجلا عنده علم ما قبلنا ، فسله عما بدا لك ، فإنه بذلك عليم ، وهو عندنا أمين ، ونستعين بالله العزيز العليم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام عليك » .

وقد أحسن أبو عبيدة فى إرسال الكتاب مع رجل خبير بصير ثقة ، يستطيع أن يشرح ويوضح ، ويمكن الاعتماد عليه ، لأن الكتاب مهما طال لن يصور ما يريده أبو عبيدة ، ولأن الكتاب عرضة للضياع ، أو الوقوع فى أيدى الأعداء ، فلو ذكر أبو عبيدة جميعَ التفصيلات والاحتمالات ووجوه الرأى لاستفاد بها أعداؤه ، وأما الرسول الثقة ، فإنه سيصمت إلى أن يلتقى الخليفة فيفضى إليه بكل ما هناك فى حكمة وإخلاص .

***

وجاء رد عمر على الكتاب السابق يلوم أبا عبيدة لأنه ترك «حمص» المفتوحة المطمئنة إلى «دمشق» ، فتصبح حمص عرضة للأعاصير ، ولكن عمر حينما يعلم أن القوم اتفقوا على ذلك يرضى به احتراماً لرأى الجماعة ، ويقول فى رده : «فعلمت أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد فى العاجلة والعاقبة ، فهوَّن ذلك علىَّ ما كان دخلنى من الكراهية قبل ذلك لتحولكم» .

وهذا غاية ما يُعرف عن الخلفاء والأمراء من احترام لرأى الجماعة ، وحسن ظن به . .

وكان عمرو بن العاص حينئذ على «إيلياء» ، فأرسل ابنه عبد الله بكتاب إلى أبى عبيدة يخبره فيه أن أهل إيلياء وكثيراً ممن كان المسلمون صالحوهم من أهل الأردن قد نقضوا العهد ، وتجرءوا على جماعة المسلمين بعد انسحاب الجيش الإسلامى من المواطن التى كان فيها سابقاً ، وطلب عمرو من أبى عبيدة أن يكتب إليه بالرأى : أينتظر أبا عبيدة حتى يقدم عليه ، أم يسير عمرو إلى أبى عبيدة ؟ . . . وطلب عمرو المدد ليقوى ويضبط ما عنده ، فكتب إليه أبو عبيدة كتاباً تظهر فيه المهارةُ الحربية ، والمكيدة الفنية التى دبرتها كتائب الجيش الإسلامى لأعدائهم ، فهو يبين أن الجيش قد انسحب عما انسحب عنه للاستدراج فحسب ، وليبرز المشركون من مكانهم ، فتتحدد مواطنهم ، ومن جهة أخرى يتجمع المجاهدون المسلمون ويتوحدون ، وأبو عبيدة فى الوقت نفسه على يقين من النصر ، لأنه ذو ثقة بالله ، ولأنه يعرف سنة الله ، وهى أن ينصر المؤمنين ، وأن يخذل المبطلين . . ثم يدخل الطمأنينة على قلب عمرو بن العاص ، ويخبره أنه قادم إليه بالجموع فلا يخش شيئا . . .

يقول أبو عبيدة فى كتابه هذا :

«أما بعد . . فقد قدم على عبد الله بن عمرو بكتابك ، تذكر فيه إرجاف المرجفين ، واستعدادهم لك ، وجرأتهم عليك ، للذى بلغهم

من انصرافنا عن الروم ، وما خلينا لهم من الأرض، وإن ذلك — والحمد لله — لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم ، ولا وهن من عدوهم ، ولكنه كان رأياً من جماعتهم ، كادوا به عدوهم من المشركين ، ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم ، وليجتمع بعض المسلمين إلى بعض ، ويجتمعوا من أطرافهم ، وينضم إليهم من كان قربهم ، وينتظروا قدوم أمدادهم عليهم ، ثم يناهضوهم إن شاء الله . .

وقد اجتمعت خيلهم ، وتتامت فرسانهم ، ووثقنا بنصر الله أولياءه ، وانجاز موعده ، وإعزاز دينه ، وإذلال المشركين ، حتى لا يمنع أحدُهم أمّه ولا حليلـتَه ولا نفسه ، حتى يتوقلوا[1] فى رءوس الجبال، ويعجزوا عن منع الحصون ، ويجنحوا للسلم ، ويلتمسوا الصلح : « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ثم أعلم من قبلك من المسلمين أنى قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام إن شاء الله ، فليحسنوا بالله الظن ، ولا يجدن أهلُ حربكم وعدوكم فيكم ضعفاً ولا وهناً ولا فشلا ، فيغتمزوا فيكم ، ويتجرءوا عليكم ، أعزنا الله وإياكم بنصره ، وألبسنا وإياكم عافيته وعفوه ، والسلام عليك » .

* * *

وقد بعث هذا الكتاب فى نفس عمرو الثقةَ والقوة ، فوجّه إلى أهل « إيلياء » (بيت المقدس) وبطارقتها كتاباً شديداً عنيفاً ، وفيه يقول :

« فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتاباً أماناً على دمائكم وأموالكم ، وأعقد لكم عقداً تؤدون إلىَّ به الجزيةَ عن يَد وأنتم صاغرون ، وإلا فو الله الذى لا إله إلا هو لأرمينكم بالخيل بعد الخيل ، وبالرجال بعد الرجال ، ثم لا أقلع عنكم حتى أقتل المقاتلةَ ، وأسبى الذرية ، وتكونوا كأمة كانت ، فأصبحت كأنها لم تكن » . . .

* * *

(١) يصعدوا .

هكذا تكون القوة المؤمنة المقتدرة ، التى تنصف أولا من نفسها ، وتعطى كلَّ ذى حق حقّـه ، وتدعو إلى صراط الحق والمعدلة ، فإن أبى المدعون إلى هذا أن يستجيبوا لصوت الإنصاف والاعتدال ، لم يبق إلا السيف ، ولم يبق إلا الرمى بالخيل بعد الخيل ، وبالرجال بعد الرجال .

ليت شعرى : أين حاضرنا من ماضينا ؟ . . وأين ادعاء الحلم عند العجزة الضعفاء من اعتدال القدرة عند الكَمَلة الأقوياء ؟ . . .

عند اليرموك

خرج أبو عبيدة رضى الله عنه من دمشق بجيش المسلمين ، إلى بلاد الأردن ، وكان فى مقدمة الجيش البطل المغوار ، والسيف الإلهى المسلول خالد بن الوليد ، وساروا حتى نزلوا وادى اليرموك ، وجاء عمرو ابن العاص بمن معه فانضم إلى الجماعة ، وتحركت جموع الروم ، واقتربت من حمى المسلمين ، فقال معاذ بن جبل رضى الله عنه ورجال المسلمين لأبى عبيدة : ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تعلمه علم هذه الجيوش التى جاءتنا ، وتسأله المدد ؟ .

فكتب أبو عبيدة إلى عمر كتاباً تلوح فيه الدقةُ الدقيقة ، فهو يصوِّر الحال تصويراً بليغاً ، وهو يخبر عمر عن رجال العدو فى تفصيل وشمول ، مع اختصار أيضاً ، ويطلعه على الحقيقة القاسية ، وهى الضيق المحيط بالجيش الإسلامى . ثم يذكر أنه لم يخدع جنودَ الجيش عن حقيقة الحال ، بل أطلعهم عليها ، ليكونوا على بينة منها ، فلا يغتروا ولا يفرِّطوا ، ثم يطلب المدد من عمر ، وإلا فقد ذهبت نفوس المسلمين إن أقاموا وثبتوا ، أوذهب دينهم عنهم إن أضلهم الشيطان ففرَّقهم . . .

وأرسل أبو عبيدة كتابه مع عبد الله بن قرط الثمالى . قال أبو عبيدة رضى الله عنه :

« أما بعد . أخبر أمير المؤمنين — أكرمه الله — ان الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً ، ولم يخلفوا وراءهم رجلا يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به ، وأخرجوا معهم القسيسين والأساقفة ، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة ، وجاءونا

وهم نحو من أربعمائة ألف رجل ، وإنه لما بلغنى ذلك من أمرهم ، كرهت أن أغر المسلمين من أنفسهم ، أو أكتمهم ما بلغنى عنهم ، فكشفت لهم عن الخبر ، وشرحت لهم الأمر ، وسألتهم عن الرأى ، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى أرض الشام ، ثم يضم إلينا أطرافنا وقواصينا ، وتكون بذلك المكان جماعتنا ، حتى يقدم علينا من قِبَل أمير المؤمنين المددُ لنا ، فالعجلَ العجلَ يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال ، وإلا فاحتسب أنفسَ المؤمنين إن هم أقاموا ، ودينَهم منهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم ما لاقبل لهم به ، إلا أن يمدهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغياثٍ من قبله ، والسلام عليك » .

***

وأحب أن ألاحظ معك ملاحظةً من ناحية الصيغة فى كتب أبى عبيدة غالباً — ولعلها أيضا توجد فى كتب غيره — هى أنه إذا كتب فى نصر أو فتح أو أمر عادى أو محتمل بسط فى المقدمة، فاستفتح بالبسملة ثم ثنى باسم المرسل إليه وباسمه ، ثم ثلث بالسلام، ثم انتقل إلى حمد الله الذى لا إله إلا هو ، ثم انتقل إلى الموضوع بقوله (أما بعد) ، فتأتى الصيغة هكذا تقريباً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من أبى عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . . فالحمد لله الذى أفاء علينا وعليك يا أمير المؤمنين . . . إلخ . . وذلك كما جاء فى صدر كتاب أبى عبيدة إلى عمر بشأن الصلح مع أهل حمص ، وقد تقدم .

ولا عجب فى هذا البسط المناسب ، فالمقام مقام تهنئة ، أو مشورة معتادة ، والفكر متهيء ، والنفس هادئة ، فتستطيع أن تأتى بالكلام على وجهه ، مستوفيا أركانَ الرسالة المعتادة .

وأما حين يكتب فى شدة طارئة ، أو نازلة محيطة ، أو موقف عصيب ، فإنه يختصر الكلام اختصاراً ، ويختزله اختزالا ، فيدير فى نفسه

الاستعانةَ باسم الله وقدرته ، وحمده والثناء عليه ، لكيلا لا تفوت الفرصة ، ولا يتأخر الكتاب ، ولكي يكون صريح التأثير وعاجله في نفس المرسل إليه ، ولذلك نراه في رسالته هذه يبتدئها مباشرة بقوله :

« أما بعد .. فأخبر أمير المؤمنين – أكرمه الله – أن الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً » .. إلخ .

* * *

وقد رد عليه عمر رضي الله عنه بخطاب طويل ، يثبته فيه ويطمئنه ، وينفي عنه الخوفَ والفزع ، ويذكره بالذين استشهدوا في سبيل الله ، فأثنى عليهم خيراً . ويذكره بقوة الله وحوله وقدرته ، ويقول له فيما يقول : « واقرأ كتابي هذا على الناس ، ومُرهم فليقاتلوا في سبيل الله ، وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثوابَ الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة » .

وبعث عمر إلى أبي عبيدة سعيد بن عامر بن جـــذيم في جيش مدداً له .

وبدأت بين المسلمين والمشركين موقعة اليرموك في سنة خمس عشرة ، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً رائعاً ، وانهزم المشركون ، ولما وصل خبر الهزيمة إلى « ملك الروم » وهو بأنطاكية أمر أصحابه بالاستعداد للرحيل إلى القسطنطينية ، فلما خرج من أرض الشام ، وأشرف على أرض الروم استقبل الشام بوجهه وقال : « السلام عليك يا سورية ، سلامَ مودِّع لا يرى أنه يرجع إليك أبداً » .

ثم أرسل أبو عبيدة ميسرة بن مسروق مع ألفين من الفرسان ليتبعوا آثار القوم ، ويقطعوا عليهم كلَّ مدخل يدخلون منه ، ثم عاد فأدركه الخوف على ميسرة ومن معه ، وخاصة حينما بلغه أنهم دخلوا في دروب الروم ، فجزع جزعاً شديداً ، وندم على إرسالهم في طلب الروم ، وعجل فأرسل إلى ابن مسروق الكتاب التالي :

« أما بعد . . فإذا أتاك رسولى هذا فأقبل إلىَّ حين تنظر فى كتابى هذا ، ولا تعرجن على شىء ، فإن سلامة رجل واحد من المسلمين أحبُّ إلىَّ من جميع أموال المشركين ، والسلام عليك » .

وأرجو أن تعود مرة أخرى فتلاحظ إيجازَ الكتاب ، وكيف بدأ بلا تطويل : « أما بعد ، فإذا أتاك رسولى هذا فأقبل إلىَّ حين تنظر فى كتابى هذا » .

كما يجب أن نلاحظ هذا الحرص النبيل على حياة الجنود ، والعجلة فى إصلاح الخطأ ، والسرعة فى توفير السلامة لمن تتعرض حياتهم للخطر ، وذلك ديدنُ القائد المخلص الأمين .

إلى أهل إيلياء

هذا كتاب كتبه أبو عبيدة إلى أهل « إيلياء » ، وفيه نرى طرازاً آخر من كتابة أبي عبيدة . إنه هنا حازم صارم ، يحسن الدعوة إلى دينه أولا ، ويبين ثمرات الاهتداء إليه والإذعان له ثانياً ، ويحدد ما يجب على مخالفه ثالثا : من إعطاء الجزية عن تسليم وخضوع . . ثم . . ثم تأتى الأخيرة التى لا خالفة لها ، وهى الجهاد الصادق ، فإما النصر المفضى إلى العزة فى الحياة ، وإما الشهادة المؤدية إلى نعيم الخلود .

كتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبى عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها ، سلام على من اتبع الهدى . وآمن بالله العظيم ورسوله ، أما بعد . . فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لاريبَ فيها ، وأن الله يبعث مَنْ فى القبور ، فإذا شهدتم بذلك حُرمتْ علينا دماؤكم وأموالكم ، وكنتم إخواننا فى ديننا ، وإن أبيتم فأقرُّوا لنا بإعطاء الجزية عنَ يد وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشدُّ حبًّا للموت منكم للحياة ولشرب الخمر وأكلِ لحم الخنزير ، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلكم ، وأسبى ذراريكم » .

وصف انتصار اليرموك

وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر خطابا يعرف له فيه معركةَ اليرموك بتحديد موضح ، وكيف قاتل المسلمون فى هذه المعركة قتالَ الأبطال الصناديد ، ويصور له النصرَ المجيد ، ويذكر له ما كتب به أهل « إيلياء » ، وما عرضه عليهم من عروض .

ولا تنس أن الموقف هنا موقف نصر وبشر ، وهدوء واطمئنان ، وإذن فليكن هناك متسع للبسملة والتسمية ، والسلام والتهليل ، والحمد لله والثناء عليه ، فيقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . فالحمد لله الذى أهلك المشركين ، ونصر المسلمين ، وقديماً تولى الله أمرهم ، وأظهر فلجهم ، وأعز دعوتهم ، فتبارك الله رب العالمين . . أخبر أمير المؤمنين — أكرمه الله — أنا لقينا الروم ، وهم جموع لم تلق العرب مثلهم جموعاً قط ، فأتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً ما قوتل المسلمون مثله فى موطن قط ، ورزق الله المسلمين الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، فقتلهم الله فى كل قرية وكل شعب ، وكل واد وجبل وسهل ، وغنم المسلمون عسكرهم ، وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم ، ثم إنى أتبعتهم بالمسلمين ، حتى بلغت أقاصىَ بلاد الشام ، وقد بعثت إلى أهل الشام عُمالى ، وقد بعثت إلى أهل إيلياء أدعوهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا ، وإلا فليؤدوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم ، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين إن شاء الله ، والسلام عليك » .

وقد رد عليه عمر بخطاب يحمد الله فيه ، ويشكره على صنيعه ، ثم يقول لأبى عبيدة فيه: «ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عدة ، ولا حول ولا قوة ، ولكنه بعون الله ومنه وفضله ، فلله الطول والمن والفضل العظيم . . . . » .

وليس ذلك من عمر تهوينا لشأن الاستعداد ، أو إلغاء لقيمة العتاد . . كيف والله يقول : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » ، ولكنه تذكير من عمر بتوفيق الله ، ونصح باستصحاب الإيمان ، واليقين بقوة الله العلى القدير .

استسلام أهل إيلياء

انتظر أبو عبيدة أهل إيلياء ، فأبوا أن يأتوا ليصالحوه ، فحاصرهم وضيق عليهم ، ونشب القتال بين الفريقين حينا ، وكان أبو عبيدة قد ولى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل على دمشق ليرعاها ، فلما علم سعيد بأن القتال قد دار بين المسلمين والمشركين تحرق شوقا إلى الجهاد فى سبيل الله . وفضّل حياةَ الميدان على ولايته لدمشق ، فأسرع بإرسال الكتاب الآتى إلى أبى عبيدة :

« من سعيد بن زيد إلى أبى عبيدة بن الجراح . . سلام عليك ، فإنى أحمد إليكَ الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . فإنى لعمرى ما كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد فى سبيل الله على نفسى ، وعلى ما يقربنى من مرضاة ربى عز وجل ، فإذا أتاك كتابى هذا فابعث إلى عملك من هو أرغب فيه منى ، فليعمل لك عليه من بدا لك ، فإنى قادم عليك إن شاء الله ، والسلام »

فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب قال : « أشهد ليفعلنها » . .

وأرسل يزيد بن أبى سفيان ليكون واليا على دمشق مكان سعيد ابن زيد ! ! . .

وبمثل سعيد وروحه الجهادية انتصر المسلمون .

* * *

ولما رأى أهل « إيلياء » أن أبا عبيدة لن يقلع عنهم ، وأنهم لا طاقة لهم بحربه ، سألوه الصلح ، واشترطوا أن يكون عمر هو الذى يعطيهم العهد والأمان . فقبل ذلك أبو عبيدة ، وهم بالكتابة إلى عمر ، فنصحه معاذ بن جبل ألا يكتب حتى يستوثق منهم ، ويحلفوا على ذلك ، إذ ربما

يحضر عمر وينقض القوم عهدهم ، فاستوثق منهم أبو عبيدة ، وكتب إلى أمير المومنين الكتاب التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . فإنا أقمنا على « إيلياء » ، وظنوا أن لهم فى المطاولة بهم فرجا ورجاء ، فلم يزدهم الله بها إلا ضيقا ونقصا ، وهزلا وأزلا[1] ، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ما كانوا به ممتنعين قبل ذلك ، وله كارهين ، وأنهم سألوا الصلح ، على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين ، فيكون هو المؤمِّن لهم ، والكاتب لهم كتابا ، وإنا خشينا أن يقدم أمير المؤمنين ، ثم يغدر القوم فيرجعوا ، فيكون مسيرك — أصلحك الله — عناء وفضلا (زيادة) ، فأخذنا عليهم المواثيق المغلظة بأيمانهم : لئن أنت قدمتَ عليهم فأمنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلن ذلك ، وليؤدن الجزية ، وليدخلن فيما دخل فيه أهلُ الذمة ، ففعلوا وأخذنا عليهم المواثيقَ بذلك ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل ، فإن فى مسيرك أجراً وصلاحا وعافية للمسلمين ، أراك الله مرشدك ، ويسر أمرك ، والسلام عليك » .

* * *

وقدم عمر بناءً على ذلك ، حتى بلغ أرض الشام ، ونزل « بالجابية » وأتاه أهل « إيلياء » فصالحهم ، وكتب لهم أمانا هو صورة من صور العدالة الإسلامية ، ومثل من أمثلة الحرية الدينية ، التى أتاحها المسلمون المنتصرون فى عصورهم المزهرة لمخالفيهم فى الدين ، ومن الخير أن نثبت هنا نصَّ ذلك العهد ، وإن يكن هذا استطرادا فأنعم به من استطراد . .

وهذا نص الميثاق :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين

---

(١) الأزل بوزن الفتح : الضيق والشدة .

أهل « إيلياء » من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمهم وبريئهم ، وسائر ملتهم ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرَهون على دينهم ، ولا يُضارّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل « إيلياء » أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن (مدائن الشام) وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل « إيلياء » من الجزية .

ومن أحب من أهل « إيلياء » أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل « فلان » فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل « إيلياء » من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع مع أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن ابن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان .

« وكتب وحضر سنة خمس عشرة » .

* * *

قل للجاهلين الذين يسيئون بالإسلام الظنون ، ويفترون عليه ما هو منه برىء ، قل لهؤلاء : هذا لون من ألوان العدالة الإنسانية فى الإسلام،

وهذا مظهر من مظاهر القسطاس الإسلامى فى الوقت الذى يشعر فيه المسلمون بقوتهم وغلبتهم وانتصارهم . وللقوة سورة ، وللغلبة نشوة ، وللانتصار سكرة ، ولكن أبناء الإسلام لا ينسون العدل أينما كانوا : والقرآن يقول : « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » ، « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة » .

كتاب قرآنى

فى فتوح الشام حاصر المشركون أبا عبيدة وجيشه ، وضيقوا عليهم، فأصابهم جهد وتعب ، فكتب إليه عمر مهوّناً ومشجعاً ، يقول :

« سلام عليك ، أما بعد . فإنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها فرجا ، ولن يغلب عسر يسرين : (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) » .

هذا كتاب فى غاية الإيجاز ، نحو نصفه من القرآن[1] ، وهو لا يزيد عن أربع جمل ، وكأنما لاحظ أبو عبيدة هذا ، فأجاب بالطريقة نفسها ، فجعل ردّه اقتباساً من القرآن ، وكان موّفقاً فى الاختيار ، إذ اختار آيتين ، أما الأولى منهما ففيها أبلغ تصوير للحياة الدنيا وسرعة زوالها ، وأما الثانية ففيها وصف للنعيم المقيم ، وفضل الله العظيم ، قال أبو عبيدة :

« سلام عليك ، أما بعد : فإن الله تبارك وتعالى قال :

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

---

(١) النصف الأخير من نص القرآن ، والنصف الاول فيه أيضا استمداد من القرآن ، فالجملة الثانية تذكر بقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » ، والجملة الثالثة تذكر بقوله تعالى : « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا »

وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ، سَابِقُوا
إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ
أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »

(سورة الحديد — ٢٠ و ٢١)

https://archive.org/details/@user082170

عظة لأبى عبيدة

هذه عظة لأبى عبيدة رضى الله عنه ، وستراها قريبة فى خصائصها من كتاباته ، فهى وجيزة وواضحة ، ومتسمة بسمة الإيمان بالله وحسن الظن فيه ، يقول :

« أيها الناس . رُبَّ مبيض لثيابه وهو مدنس لدينه ، رب مكرم لنفسه وهو لها مهين . أدركوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أن شخصاً أذنب حتى بلغت ذنوبه السماءَ ثم أحسن جاءت حسنته فغلبت سيئاته » .

وهذه الغلبة طبعا تتحقق عند التوبة الصادقة ، والندم الصحيح ، والاستقامة على الطاعة .

خطبة تحريض

فى واقعة « حمص » أراد أبو عبيدة أن يحرض الناس على الجهاد فخطب فيهم قائلا :

« أيها الناس ، إن هذا يوم له مابعده ، أما من حي منكم فإنه يصفو له ملكه وقراره ، وأما من مات منكم فإنها الشهادة ، فأحسنوا بالله الظن، ولايكرِّهن إليكم الموتَ أمرٌ قد اقترفه أحدكم دون الشرك ، توبوا إلى الله ، وتعرضوا للشهادة ، فإنى أشهد — وليس أوان الكذب — أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة » .

وخطبته — كما ترى — مثل عظته وكتابته : قصيرة . واضحة ، شافية ، مؤمنة .

مسند أبى عبيدة

ذكر ياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » أن من مصنفات إبراهيم بن إسحاق الحربى كتابا اسمه « مسند أبى عبيدة بن الجراح[1] » . وهذا يدل على أن أبا عبيدة قد أسهم بنصيبه الملحوظ فى رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ، ج ١ ص ١٢٨ . طبعة رفاعى .

نهاية أبى عبيدة

لكل حياة نهاية مهما طالت : « كل من عليها فانٍ ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . . . وأبو عبيدة أحد الناس ، ولا بد أن يجرى عليه ما جرى ويجرى عليهم ، ولقد عظمت حياته ما عظمت ، وتعددت صفحات البطولة فيها ما تعددت ، ولكن لا بد للحياة من خاتمة ، ولا بد للكتاب من طى . . وقد كان . .

ظهر الطاعون فى أرض الشام وأبو عبيدة بها ، ويلوح أن ظهوره يرجع إلى آثار الدماء ، وكثرة جثث القتلى ، بسبب كثرة المعارك ، وتلوث المياه ، وعدم الالتفات إلى وسائل الوقاية والتطهير ، والتخلص من الجراثيم التى تتكاثر فى تلك الحالة .

وقد بدأ الطاعون فى بلدة « عمواس » وهى بين « الرملة » و « بيت المقدس » ، وعلى بعد أربعة فراسخ من « الرملة » . وكان ابتداؤه فى السنة الثامنة عشرة للهجرة ، ومن عمواس انتشر فى البلاد ، وفشا بين العباد ، حتى قضى على كثير منهم يُعَدون بعشرات الألوف ، حتى قيل — كما فى رواية ابن عساكر إن أبا عبيدة كان فى ستة وثلاثين ألفاً من المسلمين ، فلم يبق منهم إلا ستة آلاف رجل ! . .

وكان أبو عبيدة أمير القوم ، وكان يرى أن الطاعون يشتعل فى الناس ، ويودى بهم إلى الهلاك ، ولكن كيف يتركهم وهو قائدهم ؟ . . . ثم هو يذكر قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها » .

ثم هو رجل مؤمن موقن زاهد ، لا يرغب فى الدنيا ، ولا يحب

طولَ البقاء فيها، وما عند الله خير وأبقى؛ فما حرصه على الحياة؟ . . . وماتمسكه بأسبابها؟ ... لقد عاش ما عاش، وطعم ما طعم، وبلغ من المجد ما بلغ، وقيل له ما قيل، وكل ذلك يبدو أمامه قليلا ضئيلا بجوار ما وعد الله به عباده المؤمنين من نعيم مقيم: « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ».

وإذن فليبق أبو عبيدة بين القوم، وليحتمل معهم ما يحتملون، وليكن ما يكون.

رضينا بقضاء الله وقدره.

رضينا بالله قسما وحظاً . .

ولو جاء أحد فى هذا الوقت يحدّث أبا عبيدة عن العدوى، وعن الحيطة والوقاية، وعن النصوص التى جاءت فى القرآن والسنة حول هذا الموضوع، لما كذّبه أبو عبيدة، ولكن المتحدث لن يجد الأذنَ السميعة المستجيبة من أبى عبيدة، فقد كان يهيم فى وادٍ آخر من الإعراض عن الدنيا، ومن الاستهانة بمتاعها، والبقاء فيها.

وإذا كان هناك جاهلون أو مغرضون قد زعموا أن مؤامرة عُقدت بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ليتولوا الخلافة بالتتابع، فهذا هو الرد المفحم المسكت لهؤلاء.

هذا أبو عبيدة فى الشام، وهذا هو الطاعون ينتشر، وهذا هو عمر قد مضى عليه فى الخلافة سنوات، وهو إن عاش حينا فسيموت بعد حين، بل هو عرضة للموت فى كل حين: « وما تدرى نفس بأى أرضَ تموت »! . .

فلماذا لا يكون أبو عبيدة بجانب عمر فى المدينة، حتى إذا أصابته نازلةُ القدر تسلم منه أبو عبيدة مقاليدَ الخلافة؟ . أيعجزه السبب الذى يلتمسه للعودة إلى المدينة؟ . . . إنه ليستطيع أسباباً لا سببا واحداً،

فقد انتهى الفتح ، وكمل دورُ أبى عبيدة فى قيادة الجيش ، ويستطيع غيره من القواد المتعاونين معه أن يلى أمرَ الجيش ، ويعود هو إلى المدينة ترقبا لمقعد الخلافة المرموق منه كما يزعم أولئك المتخرصون ! . .

لكن أبا عبيدة لم يفعل ، لأنه لم يطمع ، ولأنه لم تكن هناك مؤامرة إلا فى نفوس المفترين المغرضين ، الذين يتلمسون لأعلام الإسلام عيوبَ الافتراء والأوهام ، كما يتلمس أهلُ الحقد والبغضاء لجمال الحسناء عيبا من الهواء ، فيعييهم ذلك فى الأرض أو فى السماء ، فيقولون : وما ذلك البهاء فى الضياء ؟ . . .

* * *

بل هناك « جهيزة » التى تقطع قولَ كلِّ خطيب . . .

هناك البرهان الذى ليس كمثله برهان . لقد بلغ خبرُ الطاعون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو يعرف من أبى عبيدة زهدَه وقلة حيطته فى مثل هذه الأمور ، فأراد أن يستقدمه إليه ، ليبعد به عن موطن الوباء ، وحاول أن يستدرجه فى هذا الاستقدام ، فلم يذكر له أنه خائف عليه ، أو أنه راغب فى نجاته ، بل ذكر له أن هناك أمراً جليلا من أمور الرعية لا يتم بحثه إلا بمشافهة بين أبى عبيدة وأمير المؤمنين ، فكتب عمر إليه يقول :

« سلام عليك ، أما بعد . . فإنه قد عرضت لى إليك حاجة ، أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرتَ فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلىَّ » .

الآمر هنا هو الخليفة أمير المؤمنين ، راعى الأمة ، وأمينها الأول ، وقد اتخذ لكتابه صورة الكتاب الذى يكتب فى الشدائد والأزمات فاختصر المقدمات ، وقلّل الكلمات ، وهو يُقسم على أبى عبيدة ، ويؤكد عليه أن يجيب نداءه ، فيقبل إليه بأسرع ما يستطيع ، إذ بمجرد أن ينظر

فى الكتاب يبدأ فى الرحيل إلى أمير المؤمنين ، ولا ينتظر قليلا ولا كثيراً، بل لا يضع الكتاب من يده حتى يبدأ فى الإقبال على عمر .

ليس وراء ذلك فى مثل هذه الحالة بقية للتأكيد وإظهار الاهتمام . . ولكن العجيب — واستمعوا أيها المرجفون إن كنتم تسمعون — أن أبا عبيدة لم يجب ، على الرغم من كمال التهيؤ فى الموقف لتسويغ الاستجابة مع عدم الظن بأن أبا عبيدة أراد الفرار من قدر الله وهو الطاعون ! ! .

لم يجب أبو عبيدة ، لا عن جهل بالطاعون وعدواه ، فهو يرى ويسمع . إن لم يكن يعرف ويعلم ، ولا عن رغبة فى إلقاء نفسه إلى التهلكة ، ولكنه الزهد فى الحياة ، والخجل من ترك جنده يكتوون بالبلاء مهما كانت الأسباب التى تدعوه إلى الانتقال .

ولم يجب أبو عبيدة ، لأنه أدرك ماأراده عمر — رضى الله عن عمر — وعلم أنه إنما أراد أن يستخرجه من منطقة الوباء ، فقال : يغفر الله لأمير المؤمنين . . .

وكم تحمل هذه الدعوة من رموز وإشارات ! .

ثم كتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين يقول :

« يا أمير المؤمنين ، إنى قد عرفت حاجتَك إلىَّ ، وإنى فى جند من المسلمين ، لا أجد بنفسى رغبةً عنهم ، فلست أريد فراقَهم حتى يقضى الله فِىَّ وفيهم أمرَه وقضاءه ، فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ، ودعنى فى جندى » .

والكتاب كما ترى فيه ذكاء وألمعية ، وفيه تسويغ للبقاء وعدم الاستجابة للرجاء ، وفيه إشارة إلى « جند من المسلمين » ولا يليق بقائدهم أن يتركهم فى الوباء ، وينأى عنهم بنفسه وهو المسئول الأول عنهم ، وفيه رضاً نفسى من أبى عبيدة بالبقاء معهم ، فهو لا يجد بنفسه « رغبةً

عنهم » ، وفيه تذكُّر لقضاء الله وقدره اللذين يغلبان الحيلةَ والوسيلة حينما يريد اللطيف الخبير ، وفيه حسنُ خطاب من أبي عبيدة حين يسأل عمر أن يجعله في حلٍّ من عزمه وتأكيده عليه بالمسير ، ثم يختم الكتاب بلب السبب ، وعماد الأمر هنا وهو : « ودعني في جندي » ! .

* * *

وقد وصل الكتاب السابق إلى عمر ، فلما قرأه بكى ، وظن مَنْ حوله أن قضاء الله قد نزل بأبي عبيدة ، فقد سمعوا بأخبار الطاعون وسعة فتكه بالمسلمين من قبل ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أمات أبو عبيدة ؟ .

فأجاب إجابة نافية مثبتة قال : « لا ، وكأن قد[1] » . أي لم يمت بعد ، ولكنه على أبواب الموت . وذلك موقفٌ من مواقف الإلهام العمري الذي أشار إليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ولما رأى عمر إصرار أبي عبيدة على البقاء ، ووقف على النكبات التي أصيب بها المسلمون من هذا الوباء ، كتب إلى أبي عبيدة كتابا ينصحه فيه بأن يتحول بالناس من الأرض الرطبة الوخمة التي كانوا فيها ، وهي أرض الأردن يومئذ ، إلى أرض جافة ، طيبة الهواء ، قليلة الهوام ، وهي « الجابية » ، فقال له في كتابه :

« سلام عليك ، أما بعد . . فإنك أنزلت الناسَ أرض الأردن ، وهي أرض غمقة[2] ، فارفعهم إلى أرض الجابية ، فإنها أرض مرتفعه نزهة[3] » .

ولما وصل كتاب عمر إلى أبي عبيدة لم يجد غضاضةً فيما احتواه من مشورة ، فاستدعى أبا موسى الأشعري ، وطلب منه أن يبحث للجنود عن البقعة المرتفعة النزِهة ، كما أشار أمير المؤمنين .

---

(١) البيان والتبين للجاحظ ، ج ٢ ص ٢٧٩ .
(٢) غمقة : ذات ندى وثقل ووخامة ، أو قريبة من المياه .
(٣) نزهة : بعيدة عن المياه والذبان والهواء الفاسد .

ولكن لم يُغن الحذرُ من القَدَر ، فقد أصيب القائد البطل بالطاعون . .

أصيب أبو عبيدة ! . .

لم تصبه رماح الأعداء ، ولا سيوف المشركين ، ولا سهام المعارك .

وأصابته جرثومة الطاعون .

ولله فى خلقه شئون .

وَصيّة أبي عبيدة

ولما أحس أبو عبيدة بالموت أوصى قبل وفاته بقوله :

« أقرئوا أمير المؤمنين السلامَ ، وأعلموه أنه لم يبق من أمانتى شىء إلا وقد قمتُ به وأديتُه إليه ، إلا ابنةَ خارجة نُكحت فى يوم بقى من عدتها لم أكن قضيتُ فيها بحكومة ، وقد كان بعث إلىَّ بمائة دينار فردوها إليه » ..

فقالوا له : إن فى قومك حاجة ومسكنة .

فقال : ردوها إليه ، وادفنونى من غربىِّ نهرِ الأردن إلى الأرض المقدسة ...

ثم قال : ادفنونى حيث قضيت ، فإنى أخوف أن يكون سنة (أى أن يعتاد الناس ذلك من بعده) .

وكأنه أراد رضى الله عنه ألا يفتح باباً لتعيين القبور وإقامة الأنصاب حولها ، لأن الخلود فى الإسلام ليس خلودَ قبور وأجداث ، ولكنه خلودُ الذكر الحميد بين الناس .

وفى رواية عن سعيد المقبرى قال : لما طُعن[1] أبو عبيدة بن الجراح بالأردن — وبها قبره — دعا مَن حضره من المسلمين فقال :

« إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا ، وحجوا واعتمروا ، وتواصَوْا ، وانصحوا لأمرائكم ، ولا تغشوهم ، ولا تُلْهكم الدنيا ،

---

(١) أي أصيب بالطاعون .

فإن امرءاً لو عُمِّر ألفَ حول ، ما كان له بُدٌّ من أن يصير إلى مصرعى هذا الذى ترون .. الله كتب الموت على بنى آدم ، فهم ميِّتون ، وأكيسهم أطوعهم له ، وأعملهم ليوم معاده ، والسلام عليكم ورحمة الله . يا معاذ بن جبل ، صلِّ بالناس » .

ومات أبو عبيدة . .

مات البطل العربى الإسلامى ، مات القائد الفاتح ، والأمير المؤمن العظيم ! .

رُوى انه انطلق يريد الصلاةَ فى بيت المقدس ، فأدركه أجله عند « فحل » ، فتوُفِّىَ بها .

وقيل إنه توفى فى « بيسان » .

وقيل فى « الأردن » كما سبق .

وقيل فى « عمواس » . . ولا يضير ذلك كثيراً ، فالمواضع متشابهة ومتقاربة ، وقد يكون أصيب فى موضع ، ورقد فى موضع ، ولفظ نفسه الأخير فى موضع . وعلى كل حال فاسنا عبادَ قبور وتراب ، ولكننا طلابُ مبادىء وأخلاق .

وكأن القضاء استجاب لرغبة أبى عبيدة ، فلم يتعين قبرُه بيقين ، حتى لا يكون ذلك سنةً من بعده ، وحتى تظل سيرةُ أبى عبيدة العاطرة شذاً يتردد معطِّراً للآفاق ، فيكون أليقَ بأبى عبيدة ، وأنفعَ لطلاب العظة والذكرى من ألف قبر وألف تمثال[1] .

***

(١) يقال ان قبر ابى عبيدة موجود بجامع الجراح بدمشق .

رثاؤه

ولما مات أبو عبيدة وقف خَلَفُه معاذ بن جبل فى الناس يخطبهم راثيا له بصدق فقال : « أيها الناس .. توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً نصوحا ، فإن عبداً لا يلقى الله إلا تائبا من ذنبه كان حقا على الله أن يغفر له .. من كان عليه دَين فليقضه ، فإن العبد مرتهَن بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجرا[1] أخاه فليأته فليصالحه ، ولا ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث .

والدين العظيم إنكم أيها المسلمون فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدا أبرّ صدراً ، ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشد حبا للعامة ، ولا أنصح للأمة منه ، فترحموا عليه ، رحمه الله ، واحضروا الصلاة » .

فلنلاحظ هنا أن الموقف موقفُ رثاء ومشاهدة للموت ، وتذكر للدار الآخرة ، وهو موقف يستيقظ فيه الضمير ويرتعش الفؤاد ، ويستهين المرء عنده بما فى الدنيا ، ويأنس بما عند الله ، ويستكثر ذنوبه ، ويستقل طاعته ، ويهم بإصلاح شأنه استعداداً للقاء الموت الذى يراه نازلا بسواه ، ولا يبعد أبداً أن ينزل به بعد قليل .

ولذلك نرى معاذ بن جبل لا يدخل فى ذكر أبى عبيدة — رحمه الله — مباشرة ، بل يقدِّم بين يدى ذلك نصحا بتعجيل التوبة الصادقة ، وحثا على قضاء الديون والأمانات ، والودائع والحقوق ، وتحريضاً على إزالة العداوات ، وإحياء المحبات ، وهو يستوحى كل هذه العظات الأخروية من موقف الموت الرهيب ، ثم يَخلصُ بعد ذلك إلى رثاء أبى عبيدة ، فيقتصر على كلمات قصار ، ولكنها كبار .

---

(١) أى مخاصما ومقاطعا

نعي أبي عبيدة إلى الخليفة

ثم أرسل معاذ بن جبل كتاباً إلى أمير المؤمنين عمر ينعى فيه أبا عبيدة ، ويصفه بما هو أهله ، وهو من خير الكتب في النعي والعزاء المقترنين بالاسترجاع ، وحسن الاستسلام . . قال :

« لعبد الله عمر أمير المؤمنين من معاذ بن جبل ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .. فاحتسب امرأً كان لله أميرا وكان الله في عينه عظيما ، وكان علينا وعليك يا أمير المؤمنين عزيزا : أبا عبيدة بن الجراح : غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . . إنا لله وإنا إليه راجعون ، وعند الله نحتسبه ، وبالله نثق له . . كتبت لك وقد فشا الموت وهذا الوباء في الناس ، ولن يخطىء أحداً أجله من الموت ، ومن لم يمت فسيموت . . جعل الله لنا ما عنده خيراً لنا من الدنيا ، إن أبقانا أو أهلكنا ، فجزاك الله عن جماعة المسلمين ، وعن خاصتنا وعامتنا ، رحمته ومغفرته ، ورضوانه وجنته : والسلام عليك ورحمته وبركاته » .

* * *

ولقد حزن عمر على موت أبي عبيدة ، وظل يكرم ذكراه ، ولقد كان عياض بن غنم بالشام مع ابن عمه أبي عبيدة ، فلما توفي أبو عبيدة استخلف عياضا بالشام ، فأقر ذلك الخليفة عمر قائلا : « لا أغيِّر أميرا أمره أبو عبيدة »(١)

(١) كتاب خطط الشام ، ج ٦ ص ٣٥٧

صفة أبى عبيدة

كان أبو عبيدة رجلا طوالا ، نحيفا ، معروق الوجه ، خفيف اللحية ، أهتم ، وكان يصبغ لحيته بالحناء والكتم .

وقد مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة .

وروى أنه مات ولم يعقب ، وفى أخرى أنه أعقب ومات عقبه .

كلمات إنصاف

مر عمر بن الخطاب بقوم يتمنون ، فلما رأوه سكتوا .

قال : فيم كنتم ؟ .

قالوا : كنا نتمنى .

قال : فتمنوا وأنا معكم .

قالوا : فتمن .

قال : أتمنى رجالا ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة بن الجراح ، وسالم مولى أبي حذيفة : إن سالما كان شديد الحب لله ، لو لم يخف الله ما عصاه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيد بن الجراح (١)

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قريش ، أحسنها أخلاقا وأصبحها وجوها ، وأشدها حياء ، إن حدثوك لم يكذبوك ، وإن حدثتهم لم يكذبوك : أبو بكر الصديق ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان رضى الله عنهم[٢] .

رضوان الله على أمين الأمة . . . أبي عبيدة بن الجراح ! .

(تم بحمد الله)

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، ج ٣ ص ١٥٠

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ، جـ ٣ ص ٢٣ .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم من القرآن الكريم	٠٣
شهادة من الرسول	٠٥
مقدمة المؤلف	٠٧
تمهيد	٠٩
من هو أبو عبيدة	١٣
أبو عبيدة فى الجاهلية	١٥
سبق أبى عبيدة إلى الإسلام	١٧
أبو عبيدة من أهل الهجرتين	٢٠
أمين هذه الأمة	٢٣
الله خير وأبقى	٢٦
أبو عبيدة يوم أحد	٢٩
نجدة	٣٢
نعوذ بالله	٣٣
تواضعه ورغبته عن التفاخر	٣٥
زهد أبى عبيدة	٤١
بين عمر وأبى عبيدة	٤٣
حفظه لحقوق سواه	٤٨
أبو عبيدة فى الميدان	٥٢
تقديره لجهود العاملين	٥٨
نبل ومروءة	٥٩
نفوس الكبار تتبادل الاحترام	٦٤
وهذه أخرى	٦٦
حيطة أبى عبيدة	٦٩
أبو عبيدة فى كلامه	٧٣
فى قتال الروم	٧٤
وعظ الخليفة عمر	٧٨
فى موقعة فحل	٨١
عهد أبى عبيدة لأهل بعلبك	٨٥

الموضوع	الصفحة



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤
٤١٠١٢ ـ ٤٠٧٥٣

العدد ٣١ الثمن ١٣ قرش